٥ - من منشورات مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي

يتيمة البيان

في شيء من

علوم القرآن

تأليف
المحدث الكبير علامة العصر فضيلة الشيخ
محمد يوسف البنوري رحمه الله

قام بطبعه
مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي
كراتشي ٣٦٠٠ - پاكستان

الناشر مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامى
بكراتشى باكستان

الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

عدد النسخ ١٢٠٠

المطبعة

القادر برنتنك سينتر

وشنداس رود رام سوامى

كراتشي - باكستان

كلمة الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قد وفقت لأن أقدم رسالتي "يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن" في ظروف ضيقة من ناحية الفرصة وشغل القلب ، ولولا مساعدة صاحبي الحبيب الأستاذ محمد حبيب الله المختار وحثه عزمي وإشرافه لاختيار الورق والطبع والتصحيح واختيار القطع ، ثم استمداد صاحب المطبعة الأستاذ سيد شاهد حسن المحترم لما كنت وفقت لتقديمها ؛ فأشكرهما من جذر قلبي ، وجزاهما الله خيراً ، راجياً من الله أن ينفع بهذا الجهد الضئيل كل من له صلة بالقرآن الكريم من تدبر وإمعان ، والله سبحانه ولي كل توفيق ونعمة.

كتبه

محمد يوسف البنوري

يوم الجمعة ٢١ رمضان المبارك

١٣٩٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله العلي العظيم والصلاة والسلام على حبيبه الكريم محمد وآله وأصحابه أجمعين . وبعد :

فقد وفقنا الله جل وعلا أن نقدم للعلماء وطلبة العلم درةً ثمينةً و كنزاً عظيماً باسم "يتيمة البيان في شئ من علوم القرآن" لشيخي الحبيب المحدث الكبير علامة العصر الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالى الذي لم تر العيون مثله ولا رأى مثل نفسه وهذه طبعة ثالثة لهذا السفر .

الكتاب الذي جمع فيه أبحاثاً قيمةً في علوم القرآن الكريم لمن هم هيمان بالعلم وقد التقط اللآلي من بحار زخارة وجمعها في هذا الكتاب القيم فخضه تجده بحراً زاخراً وذقه فمن لم يذق لم يدر تجد فيه نفائس و تجد فيه ملخصاً للأبحاث الطويلة نرجو الله تعالى أن يوفقنا للاستفادة من مثل هذه الأسفار الثمينة وتلاوة كتابه ليلاً ونهاراً والعمل بما فيه وهو الموفق والميسر وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

الدكتور محمد حبيب الله مختار

خادم جامعة العلوم الإسلامية - كراتشي

ورئيس مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي - باكستان

٢٣-١-١٤١٦هـ

٢١-٦-١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــدمـــة الطبع الجديد

الحمد لله حمداً يستجلب رضى الله سبحانه و تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا الرسول محمد ما يكافئ منزلته العليا ، وعلى آله وصحبه وتبعه دائماً أبداً .

وبعد : فكنت قدمت قبل أربعين سنـة مقدمة لكتاب " مشكلات القرآن " لإمام العصر المحـدث الكبير شيخنا الكشميرى المتوفى سنة ١٣٥٢ ﻫ رحمه الله ، تحوى ما عنيت به من أمور كانت لها أهمية ، ومن أهمها موضوع إعجاز القرآن الكريم فى نظر إمام العصر ـ قدس سره ـ وبعض ما له صلـة بقواعد أساسية لفهم التنزيل العزيز ، وجاءت أمور استطرادية غيرها ، وكنت أتمنى من برهة من الدهر أن أجعلها رسالة مستقلة أحذف منها ما لا صلة لـه بالقرآن الكريم من قرب ، وأزيـد فيها موضوعات تكملة وإنجازاً وإن كان ذكرها اختصاراً وإيجازاً ، وأنا أدرى أنى ما كنت أردت استيفاءها من أطراف ، وأكثرها كانت من قبيل الإشارات اللطاف ، وكنت كتبتها استعجالاً بل ارتجلتها ارتجالاً حيث كان طبع " المشكلات " جارياً على قـدم وساق ، وكنت على عزم لحج بيت الله الحرام ورحلة إلى بعض الآفاق (١) .

---

(١) كانت الرحلة هـذه بدأت بحج بيت الله الحرام والحضور للسلام على سيد الأنام عليه صلوات الله وسلامه ، ثم الرحلة إلى القاهرة لطبع كتابى " نصب الرايـة لأحاديث الهداية " للحافظ جمال الزيلعى و " فيض البارى على شرح البخارى " لإمام العصر الكشميرى ـ رحمه الله ـ من جهة المجلس العلمى

فجاءت المقدمة وجاوزت شأوها من ناحية كونها تقدمة"، وقد نشرت بعدما عدة كتب كـ " البرهان في علوم القرآن " للحافظ البرهان الزركشي، و" مناهل العرفان" للزرقاني من المعاصرين ...... وعدة كتب في إعجاز القرآن لو كانت أمامي عند تأليف المقدمة لاستفدت منها، والآن فترت الهمة ووهنت القوة، وضاقت الفرصة، وكثرت أعمال وأشغال، وحال الجريض دون القريض، فأقتنع بإعادة نشر المقدمة بزيادات (١) وحذف وجعلها رسالة برأسها، وسميتها: " يتيمة البيان في شئ من علوم القرآن " أسأل الله سبحانه أن يجعلها رائعة" في بابها ومع وجازتها نافعة" لطلابها، وأن يجعلها خالصة" لوجهه الكريم بفضله العظيم، وهو ولى كل توفيق ونعمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه

محمد يوسف بن السيد محمد زكريا البنوري الحسيني
خادم المدرسة العربية الإسلامية في كراتشي باكستان
يوم الجمعة ٨ شعبان سنة ١٣٩٦ هـ
٦ أغسطس سنة ١٩٧٦ م

برفاقة الأخ الكريم مولانا السيد أحمد رضا البجنوري - حفظه الله - صاحب " أنوار الباري شرح البخاري " باللغة الأردوية.

(١) هذه الزيادات إنما هي عبارة عن محاضرات ألقيتها على الطلبة في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٩ هـ وبعد إلقائها كنت أقيد خلاصتها بإشارات وإيجازات، الأولى: المحاضرة في تحقيق لفظ القرآن الكريم وأسمائه، والثانية: في حقيقة القرآن وتحقيق مسألة الكلام. والثالثة: القرآن من علم الله فلا تنتهي علومه، وجهود علماء الأمة في القرآن. والرابعة: في التفاسير المفيدة وخصائص أكثر كتب التفاسير المطبوعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ؛ ففتح به قلوباً غلفاً ، وعيوناً عمياً ، وآذاناً صماً ؛ فأقام به حججاً ، والصلاة والسلام على النبى الأمى الهاشمى القرشى ، أفصح من نطق بالضاد ، وأوتى جوامع الكلم ومصابيح الدجى ؛ وعلى آله وصحبه وعلماء أمته وهداة ملته ، الذين كابدوا للدين ، وغاصوا لأجله لججاً ، فنشروا القرآن والسنة ، وأنفقوا وسعهم فى أزمة العلم ودين الحق فوصلوا كتداً وثبجاً ، فهدوا إلى الطيب من القول ، وأصلحوا الفساد ودفعوا الشر عن البسوط وأقاموا عوجاً ، عليهم رحمة الله وبركاته ما دامت العيون تبتهج بباهر آيات الله ، والقلوب تشتق بمعجز كتاب الله وتطمئن به ثلجاً .

أما بعد ؛ فهذه عدة أبحاث فى علوم القرآن الكريم جمعتها فى مجاة المستوفز تبصرةً لإخوانى طلبة العلم وتلاميذ المعاهد الدينية والمدارس العربية فى تلخيص من البيان وإيجاز من القول ، وأنا أدرى أن علوم القرآن بحار زاخرة تضل عقول الخليقة من أفذاذ الأمة فى غمارها وعبابها دون أن تنتهى إلى ساحلها ، وأنا أدرى أن علماء الأمة الإسلامية غاصوا فى القرون الخالية فى غمارها ، وأخرجوا اللآلئ الفاخرة من أعماقها وأغوارها .

وأنا أدرى أن ذخيرةً وافرةً تمثلت بين أيدينا من ثمرات أقلام الأعيان كالحافظ الزركشى والحافظ السيوطى وغيرهما من أعلام الأمة أرباب التفاسير فى

كتبهم وأسفارهم ، وما بثه علماء البلاغة من الجرجانى والزمخشرى وابن المنير والتقى السبكى والتاج السبكى والبهاء السبكى وابن القيم والسكاكى والتفتازانى وغيرهم ، علوم وحقائق تحير الأفكار والأنظار ، وتدهش الكبار فضلاً عن الصغار . فماذا يكون وزن هذه القطيرات من السحب الهطالة ؟ وما ذا تكون هذه الرشحات أمام الوابل الغزير ؟ وما ذا يكون شأن كتيب صغير أمام هذه الأسفار الكبيرة ؟ ولكن حسبى أن أقول : إن تلك غمرات من البحار ، ولجج من تلاطم الأنهار الكبار ، وهذه شعبات من وابلهم لعقولنا القاصرة التى تقصر سفائن عقولهم عن السباحة فى تلك البحار المحيطة ، وعسى أن ينفع بها الله الكريم جيلنا الجديد ، وعسى أن تصادف فيها من غرر النقول من جهابذة هذه العصور جاد بها الجواد الكريم فى العصور الأخيرة .

ويصدق الحديث النبوى الكريم : « مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » الترمذى من حديث أنس ، وقال فى حديث جعفر عن أبيه عن جده : « أبشروا وأبشروا ، إنما مثل أمتى مثل الغيث لا يدرى آخره خير أم أوله ، أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً ، ثم أطعم منها فوج عاماً ، لعل آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً ، وأعمقها عمقاً ، وأحسنها حسناً » إلخ ؛ رواه رزين .

فالرجاء من الوهاب الكريم أن ينفع بهذه الرسالة الصغيرة مثل ما نفع بتلك الأسفار الكبيرة ، والله ذو الفضل العظيم .

القرآن الكريم وأسماؤه وتحقيق لفظ القرآن

القرآن الكريم عدّ أسماءه أبو المعالى شيدلة فى كتاب " البرهان " له توصل إلى خمسة وخمسين اسماً كما ذكره صاحب " الإتقان " ، وأبلغها صاحب كتاب " التبيان " - أى الجزائرى - إلى ما يزيد على تسعين اسماً كما حكاه صاحب " مناهل العرفان " .

والذى عندى أن القرآن أصبح كالعلم الشخصى للقرآن ، وبقية الأسماء هى صفات له ، والأشهر منها : الكتاب ، والفرقان ، والتنزيل ، والذكر ، وأطلق الكتاب ووصف بالمبين كما فى تلك الآيات : « الكتاب المبين » فى " يوسف " و " الشعراء " و " القصص " و " الدخان " وغيرها ، وبالعزيز كما فى : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه » فى " فصلت " وبالمنير كما فى قوله : « وبالكتاب المنير » فى " الفاطر " ، وبالمتشابه فى قوله : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » فى " الزمر " ، ووصف بقوله : " فصلت آياته " فى " فصلت " ، وبقوله : « أحكمت آياته ثم فصلت » فى " هود " .

وأرى أن " الفرقان " وإن كان وصفاً ولكنه أصبح كالعلم بعد القرآن فغلبت الوصفية فيه ، وقوله تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، يؤيده نحو تأييد ، فالقرآن علم لهذا الكتاب المبين كاسم الجلالة علم له تعالى جل ذكره ، والفرقان كالرحمن جرى مجرى العلم وإن كان فى الأصل وصفاً كما يؤيده قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان

أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، وكذلك الكتاب غلبت عليه العلمية فى سياق بعض الآيات كما أطلق علماً فى اصطلاح أهل الفقه والأصول .

ثم اختلفوا هل هو مشتق أو غير مشتق فى الأصل ؟ فالذى اختاره الإمام الشافعى كما حكاه البيهقى والخطيب وتبعه جماعة أنه علم غير مشتق خاص بهذا الكتاب الذى نزلـه على سيدنا محمـد بن عبد الله رسول الله ﷺ ، ثم هو معرف غير مهموز وبه قرأ ابن كثير المكى من السبعة ، فليس هو مشتقاً من القراءة عند هؤلاء ، والذى اختاره الإمام أبو الحسن الأشعرى وأقوام أنه مشتق فى الأصل غلبت عليه العلمية ، ثم اختلفوا فى أصله فقال الأشعرى : إنه من قرنت الشئ بالشئ إذا ضممته ، والنون أصلية ، وسمى به لضم السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض ، وهذا القدر لايكفى فى وجه التسمية إلا أن يقال : إن ضم كلماته بعضها إلى بعض بوصف بديع ونسق عجيب كأنه القرآن وما عداه كأنه ليس بقرآن ، وكان شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ يجنح إلى هذا حيث كان يقول : معنى القرآن بالفارسية " نشست " أى اتساق الكلمات بعضها ببعض واقتران عجيب .

وقال الفراء : هو من القرائن ، لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً ، فإذن عنده النون أيضاً أصلية وغير مهموز فى الأصل ، فوزنه فعال لا فعلان على هـذين القولين ، ويقول الزجاج : الصحيح أنـه مهموز وترك الهمز من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وإليه ذهب جماعة من أئمة العربية منهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، واللحيانى ، وقطرب وغيرهم ، ثم اختلفوا فقال اللحيانى : القرآن مصدر كالغفران سمى به المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر فهو من القراءة ، وقيل : من القرء بمعنى الجمع لأنه جمع السور بعضها ببعض ، وقال الراغب : سمى به لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة .

وأقول : أو جمع فيه ما يحتاج إليه الأمة من أمر معادهم ، وما يتوسل به إلى ما فيه الفلاح والسعادة والنجاح والنجاة ، وإذا كان من القراءة فسمى به لأنه يتلى دواماً فى العالم طول الدهر آناء الليل وأطراف النهار ، وقراءته مطلوبة فإن فى قراءته أجراً للقارئ ، أو كأنه المقروء دون غيره لما اتصف من نسق فى ترتيب حروفه ، ونظم بديع فى تركيب كلماته ، ووصف عجيب فى أساليبه وآياته ؛ فالأحسن إذن أن يقال : إنه كان فى الأصل مشتقاً من القرء أو القراءة على هذه المعانى الكريمة ، ثم غلبت عليه العلمية على وصفه فأصبح كالعلم الشخصى لكلام الله القديم ، الذى نزل على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم النبيين ﷺ ، نزل به الروح الأمين جبريل من الله رب العالمين ، الذى جمع بين دفتى المصحف ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ولام التعريف دخلت عليه نظراً إلى أصل وضعه ، لأن أصله وضعاً عام بالمعنى الوصفى ؛ فهذا يكون قولاً وسطاً فى الموضوع بين كونه اسم علم غير مشتق غير مهموز وغير معقول المعنى ، وبين كونه وصفاً مشتقاً من القرء أو القراءة مهموزاً معقول المعنى لتلك الوجوه المذكورة .

فتلخص : أنه كان فى الأصل وصفاً مشتقاً من القرن ، أو القرء ، أو القراءة ، ووجوه التسمية بكل كلها معقولة واضحة غير أنه لم يبق وصفاً بل أصبح علماً بالغلبة ؛ فإذن لا يتجرد هو عن معانيها الأصلية اللائقة به ، فهى مرادة فى وجه أصل التسمية وإن كان غلبه العلمية ، ولغلبة العلمية ربما يذهل عن تلك المعانى السامية والوجوه الكريمة فى الاشتقاق ؛ فهذه المعانى الوصفية ملحوظة لحاظاً ثانوياً والعلمية ملحوظة لحاظاً أولياً ، وتعبيرات أهل البلاغة تلاحظ فيها هذه المعانى الثوانى ، وبها تحصل المزية والميزة ؛ فكيف بتعبير القرآن الحكيم الذى وصل فى البلاغة إلى حد الإعجاز ، وتقاصر عن

شأوها أهل الحقيقة والمجاز ؛ فهذا إذن قول فصل فى هذا المعترك ؛ فخذه راضياً مرضياً وكن من الشاكرين .

ثم الملائم بالذوق نظراً إلى التعبير القرآنى أن يوصف كل اسم بما وصفه الله سبحانه فى تنزيله العزيز ؛ فيوصف القرآن بالحكيم ، وبالكريم ، وبالعظيم ، وبالمبين ، وبالمجيد ، فهو " قرآن كريم " وهو " قرآن حكيم " وهو " قرآن مجيد " وهو " قرآن عظيم " و " قرآن مبين " كما وصفه الله فى مختلف السور ، ووصف الكتاب بالمبين فى عدة سور ، ووصف بالعزيز فى قوله : « وإنــه لكتاب عزيز » فى " حم السجدة " . ووصف بالمبارك فى قولــه تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك » فى سورة ص . وهكذا يلاحظ دقــة التعبير القرآنى فى جميع الأسماء والصفات ، وتراعى المزايا فيه لكى لانتجاوز تلك المواقف اللطيفة التى تقصر عقول البشر دون غايتها :

رتب تقصر الأمانى حسرى دونها مــا وراءهن وراء

وبـالله الـتوفيـق

حقيقة القرآن وتحقيق مسألة الكلام

لماذا اضطرت الأمة من المحققين إلى أمثال هذه التدقيقات ؟

أصبحت للمعتزلة شوكة فى عهد المأمون العباسى ، وكان أحمد بن دؤاد المعتزلى صاحب الهياج بن العلاء السلمى أحد أصحاب واصل بن عطاء رئيس أهل الاعتزال وصاحب يحيى بن أكثم القاضى مقرباً لدى المأمون ومعظماً ، وكان تأثر منه الخليفة المأمون واعتقد معتقده فى مسألة خلق القرآن ، فاغتنم ابن دؤاد هذه الفرصة ، واستثمر هذه النهزة ؛ فحث الخليفة على أن يمتحن

المحدثين في هذه المسألة ، وأن يعاقب كل من خالفه ، وعداء أهل الاعتزال مع المحدثين لاختلاف مناهجهم وتفرق نحلتهم معروف ، وهم على طرفي النقيضين؛ فكان من جرّاء ذلك حدوث فتنة أحمد بن حنبل الإمام ، وأصبحت " محنة أحمد " عنواناً لتلك الحادثة التاريخية في كتب التاريخ ، وتمثل فيها العدوان والظلم والمعاقبة مع كبار أولياء الله بأجلى مظاهرها .

وأصبحت هذه المحنة تعدُّ بجنب وقعة الردة في عهد الصديق ، ويوم شهيد الدار ابن عفان ، وافتتحت في عهد المأمون ثم المعتصم ثم الواثق إلى نحو ثلاثين شهراً ، ثم انتهت في عهد المتوكل ، وبقي هذه المدة الطويلة مقيداً مسجوناً ، وضرب الإمام أول مرة بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً جداً إلى أن تمزقت قطع من لحمه ، ثم قطع ذلك اللحم الميت من جسده لعدم رجاء اندماله ، واستوفى أرباب التاريخ الكارثة الفادحة ، فراجعوا " البداية والنهاية " لابن كثير ، أو " الكامل " لابن أثير وغيرهما ، وبذرت الواقعة هذه بذور العداوة في قلوب أهل الحق نحو أهل الاعتزال ، وكان أحمد ـ رحمه الله ـ أعلن بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه من علم الله مع اعترافه بأن اللفظ مخلوق ، واعترافه بأن أفعالنا مخلوقة كما ذكره ابن كثير في " البداية "

وقد استدل الإمام أحمد في غضون بحثه أول مرة مع ابن أبي دؤاد بآيات التنزيل ، وأجاب عما أوردوه إجابةً شافيةً ، لكن المعتصم لم يكن عنده من الذكاء والعلم ما كان عند المأمون ، وأرى أن المأمونَ لو أمهله الأجل وسمع أدلة الإمام وبحثه لربما رجع عن معتقد أهل الاعتزال ، والمعتصم لما لم يكن عنده ذلك فاستثمر ابن أبي دؤاد غرته وعدم حذقه في الكلام ، فيقول ابن أبي دؤاد في الإمام : إنه ضال ، مضل ، مبتدع ، اقتله ودمه على رقبتي ، ولم يكن عنده غير هذا ، وبراعته في الكلام وفصاحته في النطق زينته نفسه الأمارة هذه المكيدة بصالحي الأمة .

وكان أحمد لكونه في معرض إعلان معتقد أهل الحق ما كان يجب أن يورِّي بكلمـة ، وما كان يجب أن يقول أحد : إن لفظـه بالقرآن مخلوق ، لكي لايتسلل به أهل الباطل فيجره إلى معتقدهم وإن كان هو كلاماً حقاً في نفسه ، لكنه كان يوهم إيهاماً لما يقوله أهل الاعتزال ، ولذلك كان ينقد على حسين ابن علي الكرابيسي قوله في مسألة اللفظ ؛ فدخل على المحدثين من هذه الجهة شئٌ عن النفرة عن علم الكلام ؛ فحدثت اللفظية والواقفية عن هذه الوقائع ، ولم يبق في المتحنين من أعلن بصراحة غير أربعة : الإمام أحمد وهو رئيسهم، ومحمد بن نوح الجنديسابوري ومات في الطريق ، ونعيم بن حماد الخزاعي ومات في السجن ، وأبو يعقوب البويطي ومات في سجن الواثق ، ولم يعذب عذاباً شديداً غير الإمام أحمد ، وأصبح مداراً ، وبه رفع الله علم أهل الحق وراية معتقد أهل السنة ؛ فأصبح ذكره مشهوراً مشهوداً على المنائر والمنابر وتمت بشارة رؤيا شيخه الشافعي في مصر بتبشير رسول الله ﷺ الإمام أحمد باستقامته في عقيدة أهل الحق ، وأن يرفع الله له علماً إلى يوم القيامة ؛ فبعث الشافعي بها صاحبه ربيع إلى أحمد كما ساقه ابن كثير وغيره عن البيهقي .

وبالجملة : من أجل ذلك اضطرّ المتكلمون والمحققون من أهل الحق إلى تنقيح مسألة الكلام من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم أدلة العقل واللغة واللسان، فبحثوا وحققوا ونقحوا بحيث لم يدعوا مجالاً لمجادل أو مشاغب ، وأوفاهم بحثاً وتدقيقاً واستيفاءً لأطراف الموضوع الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه " الإنصاف " فكفى وشفى ؛ فجزاه الله وجزاهم خيراً . فنلخص الآن بأن نقول : إن مناط الاختلاف بين أهل السنة وأهل الاعتزال على العقيدة بالكلام النفسي لله تعالى ، فأهل السنـة يقولون : إن لله سبحانـه كلاماً أزلياً ، وإنه كان متكلماً في ما لم يزل ولايزال ، والكلام له تعالى صفة قديمة أزلية غير

متصفة باللفظ ، مجردة عن الحرف والصوت ، قائمة بالله تعالى قيام بقية الصفات من العلم والإرادة والسمع والبصر وغيرها ، والمعتزلة أنكروا وجود الكلام النفسي وحصروه في اللفظي فقط ، وظاهر أن نفي اللفظي عنه تعالى نقطة وفاق بين المذهبين ، خلافاً للكرامية والحشوية والسالمية القائلين بقيام هذا الكلام المركب من الحروف والأصوات بالله تعالى ، وهو مع حدوثه قائم به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وما ذكر عن الإمامين أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما اتفقا بعد مناظرة طويلة أن من قال بخلق القرآن فهو كافر كما في " شرح أصول البزدوي " للبخاري ، وحكاه البياضي في " إشارات المرام " فمصداقه هذا المذهب الشنيع من القول بخلق القرآن لتركبه من اللفظ والصوت ثم قيامه بالله تعالى لامذهب الاعتزال حيث نزهوا الله سبحانه مثل أهل السنة عن اللفظ القديم والحرف القديم والصوت القديم ، كما يتضح ذلك من كلام البياضي في " إشارات المرام " . فهذا هو تحرير محل النزاع بين الفريقين .

ثم تحرير عقيدة أهل السنة وتوضيحها بأن نقول : كما أن للكلام اللفظي للبشر تعبيرين :

١ ــ المعنى المصدري أي التكلم والتلفظ .

٢ ــ الحاصل بالمصدر أي المتكلم به .

فكذلك هناك كلام نفسي وله معنيان ، فكما أن اللفظي فعل الإنسان باللسان بواسطة الصوت والمخارج في التعبير الأول ، فكذلك الكلام النفسي فعل قلب الإنسان ونفسه لم يخرج إلى دائرة الجوارح من اللسان واللهاة والحلقوم والحنجرة ، وكما أن اللفظي هو المتلفظ به بعد ما صدر من المرأ بالتلفظ وهو ثمرة التلفظ في التعبير الثاني فكذلك النفسي هو ما حصل في النفس بعد

ما تصوره وتفكره وفرغ من تصويره وتشكيله وتخيله ، وإثبات هذا الكلام النفسي بالمعنيين قد استوفاه المتكلمون بالأدلة العقلية والنقلية ، كما تجده في " شرح المقاصد " و " شرح العقائد النسفية " كلاهما للتفتازاني ، وشروح " العضدية " وحواشيها ، ويكفي ما ذكره السيد الآلوسي في مقدمة تفسيره بكل وضوح وجلاء ، فالله سبحانه منزه عن اللفظي بالمعنيين ؛ وأما الكلام النفسي بالمعنيين فثابت لله تعالى ؛ فالمعنى الأول على تعبير الآلوسي لحق تعالى شأنه صفة أزلية منافية للآفة الباطنية التي هي بمنزلة الخرس في التكلم الإنساني اللفظي ليس من جنس الحروف والألفاظ ، وهي واحدة بالذات تتعدد تعلقاتها بحسب تعدد المتكلم به ، وأما المعنى الثاني له تعالى فهي كلمات غيبية وألفاظ حكمية أزلية مترتبة غير متعاقبة في الوضع الغيبي ؛ فإن التعاقب يستدعي زماناً والله سبحانه متعال عن الزمان وما في الزمان ، وللمترتب الغير المتعاقب نظائر في هذا العالم أيضاً مثلاً طابع الخاتم إذا ختمت بـه ، وألواح الطباعة المعروفة اليوم ، والصور المرئية في المرائي ، والأشباح في المياه ، وما إلى ذلك من أمثلة تكون هناك ترتب من غير تعاقب ؛ فالترتب لايستلزم التعاقب في عالمنا فكيف في صفات الله تعالى شأنه .

وبالجملة : ليست أية دقة في فهم الكلام النفسي له تعالى بالمعنى الثاني ، نعم بالمعنى الأول كانت فيه دقة ، ولكن انحلت بعد دقة النظر ولله الحمد . وعلى كل حال ليس المدار على المعنى الأول فيما أرى . فإذن وضح أن يقال : إن القرآن هو كلام الله الغير المخلوق ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، مقروء بالألسنة ، مسموع بالآذان ، غير حال في شيء منها ، وهو في جميع هذه المراتب قرآن حقيقة شرعية معلوم من الدين بالضرورة ؛ فهذه الأشياء وإن كانت حادثة غير أنها تجلت فيها تلك الصفة الكلامية ، وتنزلت إلى هذه المراتب ولم تخرج عن كونها منسوبة إليه تعالى ؛

فالكل مظاهر ومرائى ومشاهد لتلك الصفة ، وهى غير حالة فيها حيث لم تفارق الذات ولا تفارقه أبداً ، والصورة فى المرآة تتجلى ، ويقال له : صورة الرائى ، وهى غير حالة فيها ، وليست فيها مادة بل كمية فقط .

ولكن أمامك لمزيد فهم هذه الأمور ما ذكره التفتازانى وغيره من مراتب أربعة للوجود : وجود فى الخارج ، و وجود فى الذهن ، و وجود فى العبارة ، و وجود فى الكتابة ، والوجود الخارجى هو الوجود الحقيقى ، والبقية وجود مجازى عند التحقيق ، فكما أن الكتابة دالة على العبارة ، والعبارة دالة على ما فى الذهن ، وما فى الذهن على ما فى الخارج ، فاتحاد هذه الأشياء فى تعريف القرآن ليس باعتبار المفهوم بل باعتبار المصداق فقط ، فالكل صور ومظاهر و تعبيرات عن تلك الحقيقة الحقة القائمة بالله تعالى ، وصفة أزلية قديمة غير زائلة عنه تعالى ، فإذن هناك قراءة ومقروء ، وكتابة ومكتوب ، وتعبير ومعبر عنه ، وتلاوة ومتلو ، فالتلاوة والقراءة والتعبير من أفعالنا وهى مخلوقة ، والمتلو والمقروء والمعبر عنه هو كلام الله القديم الصفة الأزلية القائمة به تعالى ، فإذا قلنا للمصحف المكتوب ، المقروء بالألسنة ، المسموع بالآذان : إنه قرآن ، فهو بهذه الملاحظة لا أن النقوش بعينها والأوراق بعينها والألفاظ القائمة بنا بنفسها هو القديم وإنما هى تعبيرات وعبارات عن ذلك المعنى القديم الأزلى على حد ما قيل :

عباراتنا شتى وحسنك واحد … وكل إلى ذاك الجمال يشير

وأظن فى هذا القدر مقنع وكفاية ، وهذا الفرق نفسه فى الأصل محكى عن الإمام أحمد نفسه ، ثم فصله البخارى ـ رحمه الله ـ فى رسالته المختصة بخلق أفعال العباد ، وكذلك فى كتابه " الصحيح " فى كتاب التوحيد والرد على الجهمية ، ثم استوفاه بحثاً وتحقيقاً الإمام الباقلانى فى كتابه " الإنصاف " بما

لامزيد عليه ، والحمد لله أولاً وآخراً . وما ذكره الشيخ المهائمى فى مقدمة " تبصير الرحمن فى تفسير القرآن " من القول بالاشتراك فى إطلاق القرآن الكريم على ما فى اللوح المحفوظ ، وعلى ما فى الصدور ، وعلى ما فى المكتوب فى المصاحف ، والمقروء بالألسنة ؛ فهو عندى خلاف التحقيق ، والأولى بالتحقيق أن يقال : حقيقة شرعية فيها جميعاً وإن كان مجازاً لغوياً فى بعضها ، اللهم إلا أن يأوّل كلامه بالاشتراك المعنوى دون الاشتراك اللفظى والله أعلم .

ثم إن ما كان الإمام البخارى مصرٌّ به إصراراً : القرآن كلام الله غير مخلوق ولفظى بالقرآن مخلوق ، أوقوله : وأفعالنا مخلوقة وألفاظاً من أفعالنا ، وما كان ليكتفى بما كان يكتفى به الإمام أحمد بالجملة الأولى حتى حدث ما حدث من اختلاف ونفرة بينه وبين شيخه الذهلى فوجهه كأنه يردُّ على الحشوية والكرامية والسالمية من ادعائهم بقدم اللفظ وقدم الحرف والصوت لكى لايجدوا هؤلاء فى كلام البخارى موضع حجة لادعائهم ، فكما كان عند الإمام أحمد وجهة الدفاع عن أهل السنة والرد على بدعة الاعتزال ، فكان كذلك فى نظر الإمام البخارى وجهة الرد على هؤلاء الحشوية الذين حملوا كلام الإمام على غير محله الصحيح ، و وسعوا كلامه إلى ما لم يرده الإمام ، فكان كل من الإمام أحمد والإمام البخارى قام بالدفاع عن مسلك أهل الحق والقضاء على أهل البدع بما يلائم الجو أو المصلحة والحكمة ، ولعل شيخه الذهلى كان على ذوق الإمام أحمد كان يحب أن يقتنع بما اقتنع به الإمام أحمد ، وربما يكون ذلك نظراً إلى مصلحة بلده وهو أعرف بحال بلده عن الإمام أبى عبد الله البخارى صاحبه ، والله أعلم . ونظير ذلك اختلاف أبى حنيفة والمحدثين فى مسألة الإيمان ، فكان نظر الإمام إلى الخوارج والاعتزال ، وكان نظرهم إلى المرجئة ، وهكذا تختلف الملاحظ والوجهات .

القرآن من علم الله فلا تنتهي علومه

وجهود علماء الأمة في القرآن

قال تعالى : « أنزله بعلمه » (النساء) وقال : « فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (هود) وقال سبحانه وتعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (الكهف) وقال : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان) هذه أربعة مواضع من آيات التنزيل العزيز بين الله فيها أن ما حواه القرآن من العلم الإلهي إنما هو من منبع إلهي لا ينتهي ذلك العلم ، والعلم الإلهي الغير المتناهي مثله الله سبحانه بما في آيات التنزيل العزيز من أن أشجار البسيطة لو صورت منها أقلام ، وبحار هذه الكرة الأرضية جعل منها حبر ومداد ، تصوروا قليلاً هذه الوسعة ، وكم يمكن أن يصنع من شجرة واحدة من الأقلام للكتابة ، ثم هذا الحبر الغزير من بحار البسيطة فاقدروا قدرها من قطرات وكم يكتب بكل قطرة ، والبحر الهادي وحده سطحه المربع من الأميال نحو ستين مليونا ميل على ما قدروه من المسافة ، ثم تصوروا مرة أخرى هذه الأقلام الكثيرة المدهشة ، وهذه المياه الغزيرة الموحشة ، لنفد هذا الحبر وجفت هذه الأقلام قبل أن يحصي العلم الإلهي العظيم ، فسبحان الله العظيم ما أروع وما أبلغ هذا المثال القرآني العظيم ، إنما هو كلام خبير عليم ليس بقول شاعر « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » فلما كان علم الله تعالى بهذه المثابة ، والقرآن نزله بعلمه هذا ، والمتكلم يتكلم بحسب علمه وبما يليق بمرتبته ، فإذن اتضح أن علوم القرآن وما حواه من الحقائق الإلهية والإشارات الربانية لا يحيط بها إلا من أنزله ، فسبحان الله العليم بمزايا كتابه العزيز وعلوم قرآنه العظيم ، وصدق من قال :

جميع العلم في القرآن لكن   تقاصر عنه أفهام الرجال

ثم يلاحظ بعد هذه التعبيرات القرآنية ما عبر به أعلم أفراد البشر ممن مضى ومن غبر ، سيد الأنبياء سيدنا الرسول العربى الهاشمى ﷺ فى أقواله الكريمـــة من أحاديثه الحكيمة ، فقوله ﷺ فى حديث " جامع الترمذى " من طريق الحارث الأعور عن على رضى الله عنه فى حديث طويل ما لفظه : « ولايشبع منه العلماء ، ولايخلق على كثرة الرد ، ولاتنقضى عجائبه » وفى رواية : « ولايمل قارئه » والحديث رواه ابن أبى شيبة وإسحاق والدارمى والبزار أيضاً كما ذكره الزيلعى فى " تخريج أحاديث الكشاف " ، وهو فى المطبوع من " تلخيص الحافظ ابن حجر ذيل الكشاف " (١ ـــ ٣٩٤) وقوله ﷺ فى حديث ابن عباس عند ابن أبى حاتم كما فى " الإتقان " : « القرآن ذوشجون ، وظهور وبطون ، لاتنقضى عجائبه ، ولاتبلغ غايته إلخ » . فانظر إلى هذه الكلمات النبوية لاتنقضى عجائبه ، ولاتبلغ غايته كيف أوعبت كل سعة وكل عمق فى علوم القرآن ، وقد تخصص فى الصحابة برواية أمثال هذه الأحاديث على المرتضى ، وفيه يقول ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . ثم ابن عباس ذلك الحبر وذلك البحر قال فيه ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » . والحديث الأول له شاهد من حديث ابن مسعود حبر القادسية عند الحاكم فى " المستدرك " عن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، ونور مبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعـــه ، لايزيغ فيستعتب ، ولايعوج فيقوم ، ولاتنقضى عجائبه ، ولايخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف ولام وميم » .

ومن حديث معـــاذ أعلمهم بالحلال والحرام عند الطبرانى كمــا ذكره الزيلعى فى " تخريج أحاديث الكشاف " ، وحديث " الصحيح " عند لقاء

سيدنا موسى عليه السلام سيدنا خضر عليه السلام وقول خضر لموسى عليهما السلام : ما نقص علمك وعلمي من علم الله سبحانه إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، وقول العلماء : إنه تمثيل فحسب وإلا فهناك نسبة إلى الغير المتناهي وهو علم الله ، وهنا نسبة إلى المتناهي وهو البحر ، وكان سهل بن عبد الله يقول : لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ، لأنه كلام الله ، وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه ، وكلام الله غير مخلوق ، ولاتبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة ، " البرهان " للزركشي .

ثم لاحظ من أقوال الصحابة في علوم القرآن ما روى عن باب مدينة العلم سيدنا علي - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - من حمل وقر سبعين بعيراً من تفسير سورة الفاتحة كما حكاه السيوطي عن المحدث العارف ابن أبي جمرة، وذكره الغزالي في " الإحياء " وقد كشف السيوطي عنه بما يقربه إلى الفهم ، وأقول : هو كالبديهي لايحتاج إلى بحث وتدقيق ؛ فإن الفاتحة أم القرآن ، وجميع ما صدع به القرآن الكريم موجود فيه إجمالاً كوجود الشجر العظيم في بذره ؛ ففيه مسائل الذات الجليلة والصفات والأسماء ، وفيه العوالم كلها ، ثم علاقة الربوبية في الكل بما يلائم طبيعته وبيان ذلك ، وبدائع صنع الله فيها ، وهل يمكن إحصاء العوالم وعجائبه بل لايمكن إحصاء نوع من أنواع العالم ، ويحتاج بيان كل صنف من الحيوان إلى دائرة المعارف العامة ؛ فيحوى مجلدات ثم بيان يوم القيامة وأحوالها وبدائعها وأهوالها وفظائعها المشار إليها في قوله : « مالك يوم الدين » ثم الأحكام التكليفية والعبادات وما يحتاج إليه المرأ في حياته وما إلى ذلك ، ثم أنباء الأنبياء والمقربين من الشهداء والصالحين ، ثم الفرق الباطلة أهل الملل الضالة ، فلو فتح الله سبحانه لعبد من عباده هذه

العلوم والحقائق الربانية ما يتعلق بجزء واحد لنفد العمر قبل إحصائه ، وقد أوضحت بعض الجهات تمثيلاً في الدرس من جهات الربوبية الدقيقة ، ومن سعة ملك الله على ما وقف عليه الباحثون اليوم من علماء الطبيعة ، وراجع ما ذكره الشيخ الجلال السيوطي في " إتقانه " من النوع الخامس والستين في العلوم المستنبطة من القرآن ، ثم لاحظ جملة ما وصل إلينا من أقوال كبار التابعين الذين هم سادة الأمة بعد الصحابة ، ثم ما ألفه علماء الأمة وأبدوا من مكنون علوم القرآن في تآليفهم الكبيرة العظيمة ما ذكرت شيئاً منها في ما سيأتي قريباً وما ذكره شيخنا الكوثري في " مقالاته " (ص - ٤٠٣) ، ولم آلاف الكوثري ولاعرفته ولاظهرت مقالاته حينما ذكرت هنا ما ذكرت ، وقد فصلت كل ذلك في المحاضرة تفصيلاً وألقيته عليهم تدليلاً على سعة علوم القرآن وتمثيلاً ، والله سبحانه هو الموفق لكل خير ، فالحمد لله رب العالمين ، وراجع ما ذكره الغزالي في " الإحياء " من الربع الأول في الباب الرابع في فهم القرآن (١ - ٢٦٠ و ٢٦١) وكذا شرحه " الإتحاف " للزبيدي .

وعلوم القرآن التي لاتنتهي ما وقعت الإشارة إليه في قوله تعالى : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » فعلومه الظاهرة جاء فيه أصولها وكلياتها ، والباطنة جاءت فيه إشارات لطيفة تهدي إلى معارف غامضة وحقائق دقيقة سامية ، وبالجملة : علوم القرآن ما له صلة بمقاصد القرآن الكريم من ظواهره المرادة ، وحقائقه المودعة فيه مما فيه هداية وإرشاد إلى العباد ، وتنبيه بما له علاقة من أمر المبدأ والمعاد ، وما عليه سعادة الدارين حقاً ، وما يكشف من خبايا محاسنه من علوم مرضية صحيحة . وقد سرد صاحب " مناهل العرفان " ما وقف عليه من تآليف في علوم القرآن من علي بن إبراهيم الحوفي المتوفى ٣٣٠ هـ إلى من ألف فيها في القرن الرابع عشر ، فراجعه فاستقصى جيداً .

القرآن وعلومه ومآثر الأمة فيها

إن كتاب الله جلّ ذكره كما قال : « وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » كتاب بهر العقول وسحر الفحول من الحكماء والعقلاء والعرفاء والفصحاء ، سجدت جباه مصاقع الفصحاء لبديع نظمه من الرصف العجيب ، والبيان المعجز ، حتى خلبت عقولهم روعته المدهشة وطلاوته البارعة ، وخرّت وجوه أعاظم الحكماء لحكمه العالية وأسراره الغامضة التي كلت دونها أفهامهم ، وحسرت دون ذروة سنامها أفكارهم وأحلامهم ، وغاص أكابر العرفاء في بحار معارفه وحقائقه ، فأعيتهم لججها دون الوصول إلى دركها الغامر ، الذي انقطعت دونـه مطامعهم . وخاض العلماء والفقهاء في غماره فأخرجوا إلى الأمة لآليه وجواهر أصدافها الكامنة ، فأصبحت درّة التاج لإكليل نظام العالم ، وغرّة لجبين تهذيب العصر .

وهو كتاب قال عزّ من قائل في وصفه وقد أنزله بعلمـه : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » (ص) وقال تعالى : «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (حم السجدة) . وقال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تشعرُ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله» (زمر) . وقال تعالى : « تنزيل من رب العالمين نزل به الرُّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (شعراء) . وقـال تعالى : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (شورى) .

وقال أفصح الناطقين بالضاد ، أفضل من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، أعلم الناس من مضى ومن غبر ، وأعرفهم بالله قاطبـةً ، وأنفذهم بصيرةً

بأسراره وحكمه ، سيد الرسل ، خاتم الأنبياء محمد ﷺ في وصفه ما لم يدع شأواً لمستبق فقال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل : من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ؛ ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » رواه الترمذي في " جامعه " من حديث حارث الأعور عن علي رضي الله عنه ، قال الزيلعي في " تخرج أحاديث الكشاف " (١-٣٩٤) وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والدارمي والبزار من طريق الحارث ، وله شاهد عن معاذ بن جبل أخرجه الطبراني ، ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود أيضاً مرفوعاً ، والكل لايخلو عن ضعيف ، انتهى ملخصاً .

وقال ﷺ : « القرآن ذو شجون ، وظهور وبطون ، لاتنقضي عجائبه ، ولاتبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال ، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ؛ فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء» أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ضحاك عن ابن عباس ، حكاه صاحب " الإتقان " .

فهو تنزيل عزيز وقرآن مجيد يتجمجم دون نصاعته وبراعته وفصاحته وبلاغته مصاقع العالم وخطباء العرب والعجم ، حتى أخرس ناطقهم وغيض شقاشقهم ، فأضحوا لطلاوته وحلاوته حيارى ، وسرت فيهم حميا رحيقه فتراهم سكارى وماهم بسكارى ، وكان كما قال قائلهم .

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما يفعل الخمر

وأين أنت من قول الوليد بن المغيرة حين سمع منه ﷺ آيات من أوائل " حم السجدة " فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمورق ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته اهـ ، وهو كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير ، يتكفكف دون حكمه حكماء الشرق والغرب ، ويتتعتع من استنباط أحكامه وفقهه ومسائله فقهاء العراق والحجاز والخراسان والقرطبة ، ويتلجلج من إحصاء ما حواه من نظام تهذيب النفوس ونواميس تربية العالم فلاسفة العصر وعقلاء الزمان ، ولله در الشيخ المحدث الحافظ تقي الدين السبكي ـ رحمه الله ـ فيما أنشد في ذيل جواب للشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله :

لأسرار آيات الكتاب معان تدق فلا تبدو لكل معان
وفيها لمرتاض لبيب عجائب سنا برقها يعنو له القمران
إذا بارق منها لقلبي قد بدا همت قرير العين بالطيران
سروراً وابتهاجاً وصولاً على العلى كأني على هام السماك مكاني
وهاتيك منها قد أبحت كما ترى فشكراً لمن أولى بديع بيان
وإن جناني في تموج أبحر من العلم في قلبي تمد لساني
وكم من كناس في حماي مخدر إلى أن أرى أهلاً ذكيّ جنان
فيصطاد مني ما يطيق اقتناصه وليس له بالشاردات يدان
مناي سليم الذهن ريض ارتوى بكل علوم الخلق ذو لمعان
فذاك الذي يرجى لإيضاح مشكل ويقصد للتحرير عند هيان
وكم لي في الآيات حسن تدبر به الله ذو الفضل العظيم حباني
بجاه رسول الله قد نلت كل ما أبي وسيأتي دائماً بأمان
فصلى عليه الله ما ذر شارق وسلم ما دامت له الملوان

سردت هذه الأشعار كلها حيث لم يدعني حلاوتها إلا أن أتيت برمتها ، حكاها ابنه بهاء الدين السبكي في " عروس الأفراح " .

فلما كان كلام الله تبارك وتعالى من البلاغة في غاية ليس وراءها غاية ، ومن المعارف والعلوم والحقائق والأسرار بمنزلة قاصية كلت دونها العراب والمهارى ، ومن الأحكام ونواميس النظام وتربيـة النفوس وتهذيب الأخلاق وتزكية القلوب والأرواح في شأو بعيد انقطعت دونها مطامح الأنظار ومطارح الأفكار ، وما سواها من البدائع والروائع والخصائص والمزايا لايحصى ؛ فأماثل الملة الإسلامية صرفوا أعمارهم المباركة وأنفاسهم الطاهرة في كشف أسراره من وجوه غرائده ، فأبرزوا ما في محاسنها من سبحات الأنوار ، وأفاضل الأمة المحمدية بذلوا جهودهم الفائزة ، فغاصوا في بحره المحيط ، فأخرجوا الدر المنثور ، والجوهر المنظوم ، وأتوا بنظم الدرر من الدر اللقيط .

فهـذا الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري الحنفي الملقب بالزاهد العلاء في طبقة شيوخ صاحب " الهدايـة " المتوفى ٥٤٦هـ ألف تفسيراً يزيد على ألف جزء ، حكاه الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي في "تاج التراجم" وهـذا الشيخ أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المتوفى ٤٨٣هـ صنف تفسيراً في ثلاث مائة مجلد سماه : " حدائق ذات بهجة " وقيل : في خمس مائة مجلد ، حكاه صاحب " كشف الظنون" .

وهـذا الإمام محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠هـ ألف تفسيراً للقرآن في ثلاثين ألف ورقة ، ثم اختصره في ثلاثة آلاف ورقة ، كما حكاه صاحب "الكشف" عن " الطبقات الكبرى" للشيخ تاج الدين السبكي ، وهو المطبوع اليوم بأيدينا في ثلاثين جزءاً ، فيكون التفسير الأول في ثلاث مائة مجلد مثل الأجزاء الثلاثين المطبوعة .

وهذا الشيخ الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المتوفى ٤٦٨هـ أنشأ تفسيراً في ثمانين ألف ورقة كما قاله في كتابه " القبس " ورآه بعض الفضلاء في خزانة السلطان أبي عنان في ثمانين مجلداً حكاه صاحب " الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب " .

وهذا شيخهم الأكبر أعرف أهل المغرب الطائي الأندلسي المتوفى ٦٢٨هـ صاحب "الفتوحات المكية" فسر القرآن في ستين سفراً بلغ فيه إلى سورة الكهف .

وهذا الشيخ جمال الدين أبو عبد الله الحنفي المقدسي المعروف بابن النقيب المتوفى ٦٩٨هـ صنف تفسيراً في خمسين مجلداً ونيف سماه "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير" ذكره صاحب "كشف الظنون" ، وقال الكفوي : في ثمانين مجلداً ولم يسبق إليه ، وقال مجير الدين الحنبلي في " تاريخ القدس " : في تسعة وتسعين مجلداً جمع فيه خمسين مؤلفاً في التفاسير كما حكى الفاضل اللكنوي في " الفوائد البهية" .

وهذا الشيخ أبو القاسم الأصبهاني المتوفى ٥٣٥هـ له تفسير في ثلاثين مجلداً .

وهـذا الشيخ شمس الدين أبو المظفر المتوفى ٦٥٤هـ ألف تفسيراً في ثلاثين مجلداً .

وهذا الشيخ مفضل بن سلمة الحنفي من علماء القرن الثالث له تفسير في نيف وعشرين جزءاً سماه " ضياء القلوب في معاني القرآن " ذكره ابن النديم .

وهـذا أبو بكر محمد بن الحسن الأنصاري النقاش له كتاب " التفسير الكبير " في اثنى عشر ألف ورقة ، ذكره ابن النديم .

ويقول صاحب " ظهر الإسلام " في (ص ـ ٢٠٥) : أبو بكر الأدفوي تلميذ أبي جعفر النحاس ألف كتاباً في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلداً مات

سنة ٣٨٨ هـ . ويقول فى (ص - ٢٨٠) تفسير فى مائة مجلد تستغرق عمر الكاتب وتستنفد حبر الناسخ ، حمل ابن سبكتكين العلماء على تأليفه .

ويقول الكوثرى فى " مقالاته " كما أشرت إليه سابقاً ما لفظه :

وأرجو القارئ الكريم أن يسمح لى أن أذكر بعض مؤلفات علماء هذه الأمة فى هذا الصدد مما يكون أنموذجاً لمساعيهم الجبارة فى مضمار تدوين المؤلفات ، فها هو تفسير الإمام أبى الحسن الأشعرى المسمى " المختزن " فى سبعين مجلداً على ما يذكره المقريزى فى " الخطط " ، وتفسير القاضى عبد الجبار الهمذانى المسمى " المحيط " فى مائة سفر ، وتفسير أبى يوسف عبد السلام القزوينى المسمى " حدائق ذات بهجة " أقل ما يقال فيه : إنه فى ثلاثمائة مجلد ، وكان مؤلفه وقفه وجعل مقره مسجد الإمام أبى حنيفة ببغداد ، ثم صار فى عداد الكتب التى ضاعت فى أثناء استيلاء المغول على دار الخلافة ببغداد إلا أنى سمعت من أحد أدباء الهند (١) أنه رأى قطعة منه فى أحد فهارس الخزانات .

وللحافظ ابن شاهين تفسير فى ألف جزء حديثى . وللقاضى أبى بكر ابن العربى " أنوار الفجر " فى التفسير فى نحو ثمانين ألف ورقة . والمعروف أنه موجود فى بلادنا إلا أنى لم أظفر به مع طول بحثى عنه ، ولابن النقيب المقدسى أحد مشايخ أبى حيان تفسير يقارب مائة مجلد يوجد بعض مجلدات منه فى خزانات اصطنبول ، ويوجد من تلك التفاسير بعض مجلدات فى بعض الخزانات فيما أعلم .

وأما أضخم تفسير تام يوجد اليوم — على ما نعلم — فهو تفسير " فتح المنان " المدعو بـ " التفسير العلامى " المنسوب إلى العلامة قطب الدين الشيرازى وهو فى أربعين مجلداً ، فالمجلد الأول منه موجود بدار الكتب المصريـة ، وبه تظهر خطته فى التفسير ، وفى مكتبتى محمد أسعد وعلى باشا

(١) يريد به الأستاذ اللغوى الشيخ عبد العزيز الميمنى .

ـ حكيم أوغلى ـ في اصطنبول من مجلداته ما يتمّ بها نسخة كاملة ، وللعلامة محمد الزاهر البخارى نحو مائة مجلد في التفسير كما في " المنهل الصافى " ولعلماء هذه الأمة تفاسير لاتحصى سوى ما تقدم على اختلاف مسالكهم .

وهذا ما بلغ إليه علمي القاصر من التفاسير الكبيرة جداً ، وأما التفاسير في عشرة أجزاء فما فوقها بقليل أو ما دونها بقليل ، فأكثر من أن يستقصى : فهكذا أعيان الأمة في القديم والحديث سعوا في إبراز علومه وأسراره بالسعى الحثيث ، بيد أن كل إناء يترشح بما فيه ، خاض كل منهم فيما شغف به فؤاده ؛ فالمحدث همه سرد روايات وطرق التحديث كابن جرير في تفسيره ، والسيوطي في " الدر المنثور " وغيرهما ، والفقيه دخل في غمار الاستنباط واستخراج الأحكام كالقرطبي وغيره ، والنحوى غاص في وجوه إعرابه وطرق تراكيبه وتركيب أساليبه كأبي حيان في " بحره " و " نهره " ، والباقى أولع بإظهار إعجازه في إطنابه وإيجازه ، وإبداء المحاسن في مقاطعه ومطالعه ، والتنبيه ببدائعه وروائعه ، كالزمخشرى في " كشافه " وأبي سعود في " إرشاده " ، والمتكلم جال في كلامه كالفخر الرازى سلكه في " مفاتيحه " بيد أنه أودع فيه جواهر غالية من مهمات شتى ، والمنطقى همه في ترتيب الأقيسة والبحث عن الرسوم والحدود كما فعله ابن سينا في تفسير سورة " الإخلاص " ، والفيلسوف العصرى مكابدته في إبراز ما حوته الآيات الربانية من الأسرار الكونية والبدائع العنصرية والغرائب الطبيعية كالشيخ جوهرى الطنطاوى حشا تفسيره بغرائب الطبيعيات ، وعجائب الفلكيات والعنصريات ، حتى يحس بادى الرأى كأن القرآن نزل لذلك .

فكل نفض جرابه ووطابه وفرّغ كنانته وجعابه ، وكان هذا قدراً مقدوراً من الله العلى الحكيم ، ليستبين على رؤوس الأشهاد أنه كلام لاتنقضى عجائبه ، ولينجلى كالذكاء في كبد السماء ما أخبر به الصادق المصدوق الأمين

ﷺ ، وهـذه أطراف بعضها أهم من بعض ، ويرتجى أن تكون التفاسير الكبيرة ذكرت قبلها جامعةً لسائر الأطراف المهمة ، مستوعبةً للمزايا استيعاباً على ما انتهت إليه أبصارهم وبصائرهم ، نعم ولقّى البغداد السيد المحقق الحنفي الآلوسي منة على رقاب العلماء بتفسيره " روح المعاني " فإنه أجمع تفسير في التفاسير المتداولة بأيدي أهل العلم اليوم روايةً ودرايـةً فقهاً وحديثاً ، فصاحةً وبلاغةً ، إعراباً ولغةً ، كلاماً وتصوفاً ، متناسق المباني ، متلائم المعاني ، فكله درر وغرر ، جعله الله له خير ذخر يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وحدثني صديق الفاضل التركي مولانا محمد لطف الله القشاوري عن إمام العصر شيخنا ـ رحمه الله ـ أنه قال : قد بلغت تفاسير القرآن المؤلفة إلى مائتي ألف اهـ ، نعم إذا كان الكتاب كتاب الله سبحانه فحريّ به أن يكون هذا شأنه ، ثم إذا كانت هذه علوم علماء الأمـة بالقرآن ، فما ظنك بعلوم أجلاء الصحابة بالقرآن ، ويكشف عن هـذا ما روى أنه أقام ابن عمر على حفظ القرآن ثمان سنين ، رواه مالك في " الموطأ " وما روى عن مجاهد أنه يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرةً ، حكاه السيوطي وغيره ، ثم مـا ظنك بعلوم استأثر الله بها من آتاه علم الأولين والآخرين ، أعلم أهل الأرض من أتى ومن يأتي ، ومن أنزل بـه هذا الكتاب المستبين ، وهيهات أن تحوى صدور الأمة ما أودع الله صدر نبي الأمة ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

ثم ارق واعرج من ذلك إلى منزل هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؛ فما ظنك بعلومه التي استأثر الله بها نفسه في غيبه المكنون ، وسره المخزون ، جلّ ذكره ، وعظم برهانـه ، هيهات هيهات أن تكون نسبة للمخلوق المجهول مع الخالق العليم الحكيم ، وقد أوضحه تمثيل خضر عليه السلام وهو تمثيل لاحقيقة ، فإن القطرة والبحر متناهيان محدودان ، وعلم

الله سبحانه وتعالى أجلّ من أن يحدّ بالطول والعرض ، وسع كرسيه السماوات والأرض . وكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (كهف) . وقال سبحانه وتعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » (لقمان) ؛ فليس كل من فسر القرآن ولو في مئين جزء بل في آلاف جزء أنه أحاط بجميع ما فيه علماً ، قال ابن أبي الدنيا : علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لاساحل له اهـ ، حكاه صاحب "الإتقان" نعم أحاط قسمت وجدود . وكل يحتطب في حبله الممدود .

وما كل من قال القريض بشاعر ولا كل من عاني الهوى بمتيم

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يماني

فالحق والحق يقال : إنه لا يقوم الخلق الضئيل بإيفاء حق كلام الخالق الجليل ، فخطاهم تقاصرت ، وأطماعهم تقاعست ، وهممهم تقاعدت ؛ فبقيت علوم من علومه في معادنه ، ولا تزال تبقى إلا ما انعقدت المشيئة الأزلية بإنزاله من صوب مزنه المدرار على قلوب عبيده ، ولا تزال غواديه تسقي من علومه الأمة إلى ما شاء الله ، وعسى ان تكون بقاع مجدبة من أطراف علومه يسقيها إذا اشتاقوا إلى فيضانه ، وربما يدور بالبال أن الله أظهر من مكنون علوم القرآن في كل عصر ما كان أهل العصر في فقر إليه وفاقة ، وحنت إليه النفوس بعد ما كانت مشتاقة ، وهذا أمر إن أقنعت رأسك لمشاهدة ما فسر القرآن في كل قرن من أدوار القرون المتطاولة من لدن عهد الصحابة إلى عهدنا هذا ، ولحظت إليه لحظاً إجمالياً سيكشف لك عن رأيي القاصر ، وعسى أن يكون له وقع في

بعض القلوب ، ولولا مخافة البعد عن غرضي لأعطيت القول حقه في تنسيقه وتحقيقه ، غير أن لأولي الألباب مقنعاً في الإشارات وكفاية ، وعسى أن تسمح المعادن الإسلامية وغيرها بإبراز أكثر تلك الجواهر القيمة الغالية إلى العالم ، كما تشاهد الآثار في هذه الأيام ؛ فكثير من دفائن الإسلام وخزائن علماء الأمة التي ضنت بها الأيام ، وظن أنه غالتها يد الحوادث الطارقة أغنت مكاتب القوم بعد ما كانت تحنّ إليه مشتاقةً مفتقرةً ، وهكذا يتمّ الله سبحانه وتعالى حججه في كل قرن على العالمين .

بيان ما هو الأعنى من تفسير القرآن

ثم أقول : كل تلك المساعي المباركة للأمة مما يحرى أن يقدر قدرها في حنايا الضلوع وطوايا القلوب ؛ فإنهم بذلوا ما عندهم في تجلية علوم القرآن والذب عن بيضته وحوزته حسب مقدرتهم ؛ فلهم جزيل المنة على رقاب الأمة ممن جاء بعدهم ، بيد أن الأعنى والأهم هو تفسير القرآن في استبصار من حياة نبينا ﷺ وهديه وهداه ، قولاً وفعلاً ، وإشارةً ودلالةً ؛ فإن حياته الطيبة وسيرته المباركة الزكية شرح بديع لكتاب الله العزيز مما يشاهد بالأبصار ، وتكفي في إبداء الغرض المقصود من كثير من معاناة الأفكار . وقد أوضحه قول صديقة الأمة بنت الصديق سيدتنا عائشة ـ رضي الله عنها وعنه ـ حيث قالت : كان خلقه القرآن .

وكان يقول شيخنا إمام العصر ـ رحمه الله ـ : إذا تأمل المرأ بالبصيرة النافذة في حديث رسول الله ﷺ كشف له في كثير من الأحاديث كأن القرآن عين ثرثارة تنبع منها هذه الأحاديث حتى ترى في كثير منها إشارات لطيفة إلى تعبير القرآن ، ويفيد لذلك " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " للشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ ما لايفيد غيره ، يقول الراقم : ويؤيد ذلك ما

حكاه السيوطي في " الإتقان " بقوله : وقد قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ما فهمه من القرآن قال تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » اهـ .

وكان يقول شيخنا رحمه الله : يكون مراد القرآن معلقاً ما لم يرجع إلى الحديث ولم يجعل شرحاً له ، وهكذا يكون غرض الحديث معلقاً ما لم يرجع إلى الفقه ولم يدرك به حقيقة الأمر اهـ . وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣هـ في كتاب " التقصي " في حكى عنه الشيخ العارف عبد الرحمن الثعالبي الجزائري المتوفى ٨٧٥هـ من تلامذة الحافظ ولي الدين العراقي وابن مرزوق في " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ما نصه : وأولى الأمور بمن نصح نفسه وألهم رشده معرفة السنن التي هي البيان لمجمل القرآن ، بها يوصل إلى مراد الله تعالى من عباده فيما تعبدهم من شرائع دينه الذي به الابتلاء وعليه الجزاء في دار الخلود ، والبقاء الذي يسعى لها الألباء والعقلاء والعلماء والحكماء ؛ فمن من الله عليه بحفظ السنن والقرآن فقد جعل بيده لواء الإيمان ؛ فإن فقه وفهم واستعمل ما علم دعي في ملكوت السماوات عظيماً ، ونال فضلاً جسيماً اهـ .

ثم الأهم تفسيره في استنارة من أنوار حياة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنهم نجوم الأمة وهداة الملة ، وإنهم أول المخاطبين به وأول من أمروا بمعروفه ونهوا عن منكره من الأمة ، وأول من سألوا عن متشابهه ومشكله وأول من صدعوا بمبهمه ومجمله ، وأول من كشفوا عن غريبه وغامضه ، وأول من علموا شأن نزوله ، واطلعوا على أغراض تنزيله ، وإنهم كما وصفهم عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ بقوله : أولئك أصحاب محمد ﷺ أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة

عبد الله بن عباس ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وحسبك بهذه الدعوة ، ويتلوه عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكل ما أخذ من الصحابة فحسن متقدم .

ومن المبرزين فى التابعين الحسن بن أبى الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعلقمة ، وقد قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية ، ويتلوه عكرمة ، والضحاك بن مزاحم وإن كان لم يلق ابن عباس وإنما أخذ عن ابن جبير ، وأما السدى فكان عامر الشعبى يطعن عليه وعلى أبى صالح ، لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر ، ثم حمل تفسير كتاب الله عزوجل عدول كل خلف ، وألف الناس فيه كعبد الرزاق ، والمفضل ، وعلى بن أبى طلحة ، والبخارى ، ثم إن محمد بن جرير الطبرى جمع على الناس أشتات التفسير وقرب البعيد وشفى فى الإسناد ، ومن المبرزين فى المتأخرين أبو إسحاق الزجاج ، وأبو على الفارسى (١) فإن كلامهما منخول ، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس رحمهما الله ، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما ، وعلى سننهما مكى بن أبى طالب ، وأبو العباس المهدوى متقن التأليف ، وكلهم مجتهدون مأجورون رحمهم الله ونضر وجوههم اهـ ، ومن شاء المزيد فى هذا الموضوع فليرجع إلى ما ذكره ابن النديم فى كتاب " الفهرست " من الأوائل ، ولا سيما من (ص - ٥٠ إلى ٥٩) المطبوع بمصر ، وما ذكره صاحب " كشف الظنون " من علم التفسير ، وما ذكره الشيخ جلال الدين السيوطى فى " إتقانه " من النوع الثمانين .

---

(١) حنفى كما فى " تاج التراجم " توفى قبل السبعين وثلاث مائة كما فى " فهرست ابن النديم " .

نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوا على آثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم ، فإنهم على الهدى المستقيم اه ، وكما قال فيهم الإمام عمر بن عبد العزيز : فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ قد كفوا ، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى ، وبفضل ما كانوا فيه أولى ، فإن كان الهدى ما أنتم عليه سبقتم إليه ، ولئن قلتم : إنما أحدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم فإنهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ؛ فما دونهم من مقصر ، وما فوقهم من محسر ، وقد قصر أقوام دونهم فجفوا ، وطمح عنهم أقوام فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم اه ، رواه أبو داود فى " سننه " من باب لزوم السنة .

والسابقون فى هذه الحلبة الخلفاء الراشدون ولا سيما على رضى الله عنه ، ثم ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة ، وابن مسعود ذلك الكنيف الذى أوثر به أهل القادسية (١) قال صاحب " الجواهر الحسان " : فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ ويتلوه عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو تجرد للأمر وكمله وتتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه فى ذلك أكثر من المحفوظ عن على بن أبي طالب . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب ، وكان على بن أبى طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول : نعم ترجمان القرآن

---

(١) إشارة إلى ما قاله عمر الفاروق فى مدحه لما ذكر عنده فقال : كنيف ملئ علماً ، آثرت به أهل القادسية ، كما فى " طبقات ابن سعد " (٢ ـ ١٥) طبع ليدن .

وبالجملة : الصحابة نخبة الأمة امتازوا بالفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ؛ فهم الراسخون فى العلم ، وهم السابقون فى الفهم ، وهم المفردون فى العمل ، وقال ﷺ : « سبق المفردون » وحكى السيوطى فى النوع الثامن والسبعين من " الإتقان " عن الحافظ ابن تيمية أنه يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ؛ فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ؛ ولهذا كانوا يبقون مدةً فى حفظ السورة ؛ وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ - أى عظم - فى أعيننا ، رواه أحمد فى " مسنده " اهـ . وقال العارف ابن أبى جمرة المحدث عن على رضى الله عنه أنه قال : لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت اهـ . ثم بين ما يقربه إلى الأفهام ، حكاه السيوطى .

قال الراقم : وقوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (من الجمعة) وقوله تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (من آل عمران) . وقوله تعالى فى حكاية دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (من البقرة) أوضح حجة على ما قاله ابن تيمية وغيره ، كيف لا وإن القرآن العظيم أنزله الله للتدبر فى آياته حيث قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك

مبارك ليدبروا آياته» الآية ، وذمّ قوماً بعدم التدبر فى قوله تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فالصحابة أولى الأمة بالتدبر فيه والعمل به، وإذا لم يكن الصحابة بهذه المثابة فمن يكون بعدهم ، وهم كما قال قائلهم :

هم شمس النهار إذا استقلت ونور ما يغيبه العماء
هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
من البيض الوجوه نجوم هدى لو أنك تستضىء بهم أضاءوا
فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

ومن زيادتى ارتجالاً :

بحار معارف وعيون علم بماتهم من الجهل الشفاء

وهذا موضوع واسع ليس هذا موضع إحصائه ، من شاء فليراجع إلى "الإتقان" وغيره من المظان،نعم كثيراً مما بينته وحاولت بيانه كان يخطر ببالى الفاتر وفكرى القاصر ، ثم رأيته فى كلام الأكابر الذين لهم عند الله خير ذخائر ، وقد قيل :قد يتوارد الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر ، وفى كثير من المواضع اتفق تعبيرى مع تعبيرهم وتصويرى مع تصويرهم إلا فى يسير من نهج الإنشاء ومسلك التحبير والتقديم والتأخير ، فلله الحمد حمداً كثيراً ، وما هو إلا من بركات روحانيتهم ومن حسن الظن بهم وإنهم سابقوا غايات وأصحاب آيات ، نفعنى الله تعالى بعلومهم ومعارفهم ، وحشرنى من فضله فى زمرتهم ، وإنما أطلت إطالةً فى هذا لما رأيت أن كثيراً ممن يحاولون التفسير فى هذه الأيام يحسبون أنهم فى غنية من الحديث والآثار ، ويتمسكون بمحض اللغة والتاريخ ، ويغمضون عن السنة وإجماع الأمة ؛ فيقولون بها فيما وافق هواهم ، ويذرون حيثما خالف رأيهم ؛ فيقولون ما يشاءون ويتبعون الهوى ، وهذا أول باب للإلحاد والزندقة كأبى الكلام أحمد الدهلوى

فى " ترجمان القرآن " جعل التاريخ المضطرب البنيان ورأيه الضئيل مداراً لفهم التنزيل وحل نظمــه الجليل ، وسيأتى الكلام على تفسيره فانتظره ، وكثير من أمثاله من أهل العصر أصبح هذا ديدنهم ، والموفق هو الله الهادى إلى الحق .

شروط المفسر وبيان التفسير بالرأى

ويناسب الآن أن يستوفى أطراف ما ذكرتــه من شروط المفسر والتفسير ، وبيان التفسير بالرأى ، وقــد أطال القوم فى ذلك ، ولهم الفضل والمنة علينا ، وأريد بتوفيقه تعالى أن أذكر بما قالوا بنخبتــه وزبده من غرر النقول و درر الأقوال مــا تكون واسطة قلادتها ودرة نظامها ، وعسى أن يجلو العيون ويشفى النفوس ، والله ولى التوفيق والإعانة ، قال السيوطى : اختلف الناس فى تفسير القرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لايجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شئ من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً فى معرفــة الأدلـة والفقه والنحو والأخبار والآثار وليس لــه إلا أن ينتهى إلى ما روى عن النبى ﷺ .

ومنهم من قــال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التى يحتاج إليها المفسر وهى خمسة عشر علماً : اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبيان، والبديع ، والقراءة ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، وأسباب النزول ، والقصص ، والناسخ والمنسوخ ، والفقه ، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث : « من عمل بما علم يورثه الله علم ما لم يعلم » انتهى ملخصاً وملتقطاً . وبين السيوطى وجوه الاحتياج إلى هذه العلوم فى تفسير القرآن ، وهى بادية بادى الرأى فكفينا ذكرها ، وقــال نقلاً عن ابن أبى الدنيا : فـهذه العلوم

التي هي كالآلة للمفسر لايكون مفسراً إلا بتحصيلها : فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأى المنهى عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه اهـ .

قال الراقم : التطبيق بين القولين وإرجاع الأول إلى الثانى غير عسير ، فإن ما ثبت وصح عن النبى ﷺ ولم يعارضه شئ مثله فالمصير إليه متعين عند الكل ، وإذا لم يصح عنه ﷺ شئ وكان أمراً مما يفتقر إلى الكشف عنه ، ولم يكن من المتشابه الذى يؤمن به إجمالاً ، ويفوض حقيقته وتفصيله إلى الله ، ولم يكن أمراً غامضاً لا ينحلُّ بمكابدة الأفكار ، وصار كالمتشابهات بل يبلغ إلى معناه كل أحد من أهل العلم ، ويتعاطى فهمه أهل اللغة فيسوغ القول فيه لكل من كان متضلعاً من تلك العلوم التى أحصوها ، ولابد وكيف لا والكتاب الذى أنزل ذكراً للناس وشفاءً لما فى الصدور ، كيف يعلق بين السماء والأرض وقد قال تعالى : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ولو كان الأمر كما يتبادر من القول الأول لم يعلم شئ من القرآن بالاستنباط ، ولم يفهم قدر كثير من كتاب الله ؛ فالأحسن أن يجعل الخط واحداً فى القولين ، فالأمر إذن هين لين ويرتفع الخلاف به من البين .

ويؤيدنى ـ والله أعلم ـ ما قال الزركشى : إن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، ، الأول : إما أن يرد عن النبى ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين ، فالأول يبحث فيه عن صحة السند ، والثانى : ينظر فى تفسير الصحابى ، فإن فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلاشك فى اعتماده ، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلاشك فيه ، وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك ، وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبى ﷺ بشره بذلك حيث قال : « اللهم علمه التأويل » وقد

رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لحديث : « أفرضكم زيد » ، وأما ما ورد عن التابعين فحيث جاز الاعتماد فيما سبق فكذلك ، وإلا وجب الاجتهاد ، وأما ما لم يرد فيه نقل فهو قليل ، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب " المفردات " اهـ ، حكاه السيوطي ، ويؤيدني ما نقل السيوطي في موضع آخر من " الإتقان " عن " المدخل " بقوله : فما ورد بيانه من صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة ، وما لم يرد عنه بيانه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد اهـ .

التفسير بالرأى

واعلم أن للعلماء ـ رحمهم الله ـ كلمات مختلفة في بيان التفسير بالرأي الذي قصده النبي ﷺ في قوله : « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي ، وفي رواية : « من قال إلخ » وفي أخرى : « من فسر القرآن » والذي أراده بقوله : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » خرجه أبو داود ، فالحديث الأول تكلموا في صحته ، وبعد ما صح فقال البيهقي : أراد ـ والله أعلم ـ الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه ، وأما الذي يشدُّه برهان فالقول به جائز ، ومعنى قوله ﷺ : « فأصاب فقد أخطأ » على ما في " المدخل " وحكاه السيوطي : أي فقد أخطأ الطريق ؛ فسبيله أن يرجع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة ، وفي معرفة ناسخه ومنسوخه وسبب نزوله وما يحتاج إلى بيانه إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله ، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله اهـ . أو يكون المراد به من قال فيه برأي من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه ، فيكون موافقته الصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة اهـ .

وأما الحديث الثاني فمما قاله الأنباري في أحد معنييه : من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار اهـ ، وقال ابن النقيب الحنفي : جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال : أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير . الثاني : تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله . الثالث : التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً . والرابع : التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل . الخامس : التفسير بالاستحسان والهوى اهـ ، انتقيت هذه الأقوال والتقطتها من " الإتقان " .

قال الراقم : والقول الفصل عندي ما أفاده الخازن في "تفسيره" وبلغني أن شيخنا إمام العصر ـ رحمه الله ـ استحسنه ولفظه : قال العلماء : والنهي عن القول في القرآن بالرأي إنما ورد في حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه ، وهذا لايخلو إما أن يكون عن علم أو لا ، فإن كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك، لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوى حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع في المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس، وإن كان القول في القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعاني والوجوه ؛ فهذان القسمان مذمومان ، وكلاهما داخل في النهي والوعيد الوارد في ذلك ، فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلى معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم ، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ، ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا في معانيه ، وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس فقال : « اللهم فقهه في

الدين وعلمه التأويل » فكان أكثر ما نقل عنه التفسير اه . " تفسير الخازن " من المقدمة .

وقال شيخنا رحمه الله فى أماليه على " صحيح البخارى " (٤ - ١٥٠) : إن التفسير إذا لم يوجب تغييراً لمسألة أو تبديلاً فى عقيدة السلف فليس تفسيراً بالرأى ، فإذا أوجب تغييراً لمسألة متواترة ، أو تبديلاً لعقيدة مجمع عليها ؛ فذلك هو التفسير بالرأى ، وهذا الذى يستوجب صاحبه النار ، ولاتتحصل على ما قلنا إلا بعد الاطلاع على عادات أصحاب التفسير ، وحينئذ لا قلق فيما فسره المفسرون من أذهانهم الثاقبة ، وأفكارهم الصحيحة ، ومن يطالع كتب التفسير يجدها مشحونة بالتفسير بالرأى ، ومن حجر على العلماء أن يبرزوا معانى الكتاب بعد الإمعان فى السياق والسباق ، والنظر إلى حقائق الألفاظ ومراعاة عقائد السلف ، بل ذلك حظهم من الكتاب فإنهم هم الذين ينظرون فى عجائبه ويكشفون الأستار عن وجوه دقائقه ، ويرفعون الحجب عن خبيئات حقائقه ؛ فهذا النوع من التفسير بالرأى حظ أولى العلم ونصيب العلماء المستنبطين ، أما من تكلم فيه بدون صحة الأدوات ، لا عنده علم من كلام السلف والخلف ، ولا له ذوق بالعربية ، وكان من أجلاف الناس لم يحمله على تفسير كتاب الله غير الوقاحة وقلة العلم ، فعليه الأسف كل الأسف ، وذاك الذى يستحق النار .

وقد أحسن الثعالبى الجزائرى فى " الجواهر الحسان " (١ - ١٢) فى شرح الحديث الأول حيث قال : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى فى كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلوم كالنحو والأصول ، وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه ويقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين علم ونظر ، فإن هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه ، وكان جلة من السلف

كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم ، وكان جلة من السلف كثير عددهم وهم يفسرونـــه وهم أبقوا على المسلمين فى ذلك ، رضى الله عنهم أجمعين اه ، وفى هذه الأقوال مقنع وكفاية للبصير ، والله الموفق .

تنبيه مهم فى أقوال أهل التصوف فى تفسير القرآن ، والفرق بين تأويلات الباطنيـة الملاحـدة وتأويلات الصوفيـة

ويجرى أن يذيل ما ذكرتـه بتنبيه مهم فى حق الزائغين الـذين يتمسكون بأقوال بعض الصوفية ، ويمرقون بها من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يحرفون آيات الله من غير علم وبرهان ، ويحرفون الكلم من بعد مواضعه من غير سلطان ، فليعلم أنـه قال النسفى فى " عقائده " : النصوص على ظاهرها ، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، قال التفتازانى فى "شرحه" : سميت الملاحـدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بـــذلك نفى الشريعة بالكلية ، قال : وأما ما يـــذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان اه .

قال الشيخ تاج الـدين بن عطاء الله فى كتابه " لطائف المنن " : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله ولكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآيـــة له ودلت عليه فى عرف اللسان ، وثم إفهام باطنة تفهم عند الآيـة والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء فى الحديث : « لكل آيـة ظهر وبطن » فلا يصدنك عن تلقى هـذه المعانى منهم أن يقول لك ذوجدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله ولكلام

رسوله ، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك بل يقر الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم اهـ ، حكاه صاحب " الإتقان " .

قال الراقم: والأخبار المروية فى ذلك كثيراً ما تؤزر ذلك المعنى ، وقوله ﷺ : « لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته » وقوله ﷺ : « فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم » وقوله ﷺ : « إن القرآن ذوشجون وفنون ، وظهور وبطون » وغيرها من الأخبار المرفوعة والآثار الموقوفة كل ذلك مما يؤيده تأييداً ، وحديث على - رضى الله عنه - : « أوفهم أعطيه رجل مسلم » رواه البخارى فى كتاب العلم ، أوضح حجة فى هذا الباب ، وقد مر قول الشافعى من قبل ، وأثر ابن عمر ومجاهد قد أسلفته فتذكره ، ولو كان علوم القرآن ومقاصده منحصرة على ما دل عليه منطوقه ، ولم تكن هناك دقائق ولطائف من أرباب الحقائق وباب الإشارات والمعارف ما يدل عليه مفهوم القرآن ويشير إليه فى عرض من أطراف بلاغته لما كان مزية لعالم على عالم ولمتقدم على متأخر ولا لبعض المتأخرين على بعض المتقدمين ، وما ذا يكون معنى قول ابن مسعود فى حق الصحابة : وأعمقها علماً ، فتثبت هداك الله فإن الأمر بين والفرق واضح . ثم مع ذكر أهل الحق من أرباب الحقائق لطائف القرآن وتأويلاته التى تضمنت بواطن آياته لم يؤثر عن أحد منهم تركه العمل والاعتقاد بظواهرها ، فكيف يلتبس الأمر وهو أبين من صديع الفجر ، فأرباب الحقائق هم الراسخون فى العلم ، الصادقون فى العمل ، وأما الباطنية المنكرون عن الشرائع ، الصارفون عن الظواهر ، هم الزائغون فى العلم ، والكاذبون فى العمل ، فأولئك لهم شأن ، وهؤلاء لهم شأن ، وتعرف كلاً منهم بسيماهم ، وقد قال تعالى فى حق أمثال الباطنية : « وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » فأين ابتغاء الفطنة من ابتغاء الفتنة ؟

وأين ابتغاء الحق من ابتغاء الباطل ؟ « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » :

وليس يصح فى الأفهام شئ ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ولير اجع للإلمام بأطراف الكلام والبحث إلى " الإتحاف شرح الإحياء " من الجزء الرابع ؛ هذا ، والله الهادى إلى الحق ، وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا خير خلقه محمد وآله وصحبه وتبعه أجمعين .

فائدة فى التفاسير المفيدة

ومن الملائم فى خاتمة هذا الموضوع من المقدمة أن يذكر أسماء التفاسير التى يعول عليها ويكاد يستغنى بمطالعتها عن غيرها إيقاظاً وتبصرةً لإخوانى طلبة العلم والحق ، وليعلم أن لكل تفسير مزية لايباهيه فيها تفسير آخر ، وقلما يجبر تفسير ثلمةً تكون بفقد الآخر ، وكيف تنقع الشغفة فى الوادى الرغب ، وأين برض من عد ، وأنى الثمد من البحر الزاخر ، وأنى رذاذ من الوابل الهامر ، حيث امتاز كل منها بخصائص لاتكاد توجد فى الآخر ، فلا يغنى كتاب عن كتاب فى علم واحد وإن تكفل المتأخر لأبحاث المتقدم ، بل لو اختصر أحد كتاباً قلما يكون أن يستغنى به عن أصل الكتاب ، وهذا أمر شهدت به عندنا التجربة القاطعة ، وتطق به الذوق وقام به البرهان إلا ما شاء الله ، كيف وإن اختلاف الآراء أبين من فلق الصديع ، وتباين النزعات أجلى من النهار ، وحاجة كل امرأ غير حاجة الآخر ، فقلما تتحد جهات الحاجات وقلما تتفق الآراء والنزعات على أمر سواءً بسواء ، فكم من شئ يفتقر إليه أحد ويستغنى عنه آخر ، ورب كلمة يعتنى بها عالم دون آخر ، فلهذا يلزم كل من يعتنى بعلوم القرآن ويحاول فيها التبصر والحذاقة الكاملة أن يطالع كل ما تسنى له وتيسر من التفاسير المؤلفة ، ولابد فإن الموضوع

خير كله ، ولاسيما ما أفاده الأعيان المحققون والأثبات الراسخون وإن كان بما يتعلق بسورة أو سورتين بل آية أو آيتين، فيفتقد لها من تضاعيف مؤلفاتهم فى علوم وفنون ما عدا التفسير ، وينشدها كضالته الثمينة القدر من سائر المظان المختلفة ، فكم من مشكلات القرآن يظفر المرأ بحلها فى غير محلها ، ويفوز طالبها بأوفر حظ من حيث لا يرتجى .

وأمثال هذه الدرر المبعثرة واللآلى المنثورة توجد فى كثير من كتب المحققين كالإمام حجة الإسلام الغزالى المتوفى ٥٠٥هـ ، وكالحافظ ابن القيم المتوفى ٧٥١هـ ، وهو فيهم سباق غايات قلما يعرو كتاب له من تفسير آية ، وكشيخه البحر الزاخر الحافظ ابن تيمية الحرانى المتوفى ٧٢٧هـ ، وكالشيخ أبى القاسم السيد الشريف المرتضى صاحب الأمالى فى ثلاثة أجزاء المتوفى ٤٣٦هـ ، وكالمحقق الوزير اليمانى صاحب " إيثار الحق على الخلق " وكتاب "العواصم والقواصم" وكتاب "الروض الباسم" من معاصرى الحافظ ابن حجر العسقلانى ، وكالشيخ بهاء الدين السبكى ابن تقى الدين المعاصر لابن تيمية فى كتابه " عروس الأفراح" وكالأمير يحيى بن حمزة اليمنى فى "الطراز" من علماء القرن التاسع ، وغيرهم من أعلام الأمة وأعيان الملة ما يدور على علومهم رحى القوم ، ويدور فى خاطرى من برهة إن وفقنى الله سبحانه وتعالى لنظمت هذه الدرر المنثورة من كتب هؤلاء الجهابذة والفطاحل ، وإنما صدعت به ههنا ليكون الموفقون على بصيرة من الأمر ، والله الموفق (١) .

(١) وقد كتب إلى الأستاذ أويس النكرامى أنى لما قرأت هذا أحيطك علماً بأنى جمعت ما بثه الحافظ ابن القيم فى كتبه ما تيسر ، ثم زاد عليه ما فاته من كتبه الشيخ حامد الفقى المصرى وطبع الكتاب بالقاهرة بعنوان : " التفسير القيم من كلام ابن القيم " . منه

ولما كانت الحياة الموهومة محدودة ، والحاجات والآمال ممدودة ، والهمم تقاعدت ، والعزائم تقاعست ، والأفكار تشعبت بها الأهواء في أودية شتى ، والمساعي ذهب هباء ؛ فأريد أن أنبه الطلبة إخواني من طلبة العلم على تفاسير من التفاسير المطبوعة المتداولة بين القوم والرائجة اليوم ما لو أراد أحد أن يقنع بها لكفته ، ولو استقى من عيونها وبحارها لأروته ؛ فيجد فيها ـ إن شاء الله ـ كفاء وكفاية ورواء وسقاية ، وهي عندي التفاسير الأربعة :

الأول : تفسير الحافظ عماد الدين ابن كثير الشافعي الدمشقي من تلامذة الحافظ ابن تيمية المتوفى ٧٧٤هـ ، وتفسيره تفسير منخول عن "تفسير ابن جرير" وغيره رواية ودراية لا يكاد يوجد له نظير في خصائصه في تفاسير المحدثين ، قال شيخنا إمام العصر : لو كان يغني كتاب عن كتاب لكان هو "تفسير ابن كثير" فإنه أغنى عن "تفسير ابن جرير".

والثاني : تفسير "مفاتيح الغيب" المعروف بـ "التفسير الكبير" للإمام الكبير المحقق فخر الدين ابن خطيب الري الشافعي المتوفى ٦٠٦هـ ، قال شيخنا : لم أر مشكلاً من مشكلات القرآن إلا والإمام تنبه له ، وكان يقول : إن الإمام يغوص في المشكلات بيد أنه ربما لا يظفر بحل بعض المشكلات بحيث تطمئن به القلوب وتقتنع به النفوس ، وكان شيخنا يقول : إن ما قيل في حق تفسيره : فيه كل شيء إلا التفسير ، كما حكاه صاحب "الإتقان" هو حط من قدره الجليل ومنزلته السامية ، ولعله قول من غلبت عليه سرد الروايات فقط من غير ذكر لطائف القرآن وعلومه .

والثالث : تفسير "روح المعاني" لمفتي بغداد أعلم أهل عصره السيد محمود الآلوسي الحنفي نابغة القرن الثالث عشر ، ومزاياه البارعة تجذب القلوب ومحاسنه تأخذ بالألباب ، وعندي بمنزلة "فتح الباري لصحيح البخاري" في غزارة المادة ، وفصاحة التعبير ، وبراعة التحبير ، غير أنه لما كان "فتح الباري"

شرحاً لكلام مخلوق فقضى بـه الدين الذى كان على رقاب الأمـة من شرح " الصحيح " و وفاه حقـه ، وكلام الله سبحانه و تعالى أجلُّ من أن يقوم بأعباء حقه أحد من البشر ، وإن استنفدوا فيه القوى و القدر .

والرابع : تفسير الشيخ أبى السعود الحنفى مفتى السلطنة العثمانية خطيب المفسرين قاضى القضاة العلامة المفسر الفقيه محمد بن محمد العمادى المتوفى ٩٥١هـ المسمى " بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " اعتنى بصدع غرض نظم التنزيل فى تعبير رائق ، وتصوير فائق ، وهو يغنى فى كثير من المزايا عن " الكشاف " للإمام الزمخشرى .

فهذه أربعـة كتاب : اثنان للشافعيين و اثنان للحنفيين مما يكاد يقتنع بها مفسر قليل الفرصة ، ومن حاول الاطلاع على العلوم الجديدة ، والفنون الحديثـة ، وبدائع الأكوان ، وغرائب التكوين ، ونواميس القدرة الإلهية ؛ فليضم إليها تفسير " جواهر القرآن الكريم " للشيخ جوهرى الطنطاوى ، نعم رأيه فى نقد الحديث مما لا ينبغى أن يثق به أحد ، فربما ينقد الحديث بمحض رأيه من غير أن يعول على شريطة أهله ، كذا أفاده شيخنا رحمه الله . ومن شاء تقرير مقاصد القرآن وأغراضه فى أسلوب عصرى فليضم إليها أجزاء تفسير "المنار" للفاضل السيد رشيد رضا المرحوم،غير أنه لاينبغى التعويل فى جميع ما يقوله ويزعمه،وإنه يحتاج إلى انتقاء و تنبيـه على أمور حاد قلم شيخه أو قلمه عن مسلك أهل الحق فيها ، وبالجملة : كدر هذين التفسيرين "الجواهر" و "المنار" لايمنع عن الانتفاع بصفوهما ، نعم وليكن بين يدى المستفيد قول الحماسى :

ولايغرنك صفو أنت شاربـه فربما كان بالتكدير ممتزجا

وقوله :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

هذا : ومن أراد الاقتناع بأقل منها فليقتنع "بغرائب الفرقان" للشيخ المحقق النيسابورى ، وهو ملخص مفيد من تفسير الإمام الرازى الذى سلف ذكره مع زيادة حسنة مفيدة ، و بتفسير أبى السعود العمادى المذكور ، فهذان التفسيران يكاد يكتفى بهما رجل عديم الفرصة فى حل مطالب التنزيل العزيز أو ابن كثير والكشاف ، ومن رام الاقتصار بواحد وإن كان بمنزلة البرض من عد ، وثمد من ثرثارة فوارة ، فإن رام تفسيراً مبسوطاً فعليه " بروح المعانى " ما سبق وصفه فإنه أتى بزبد الروايات ، وطرف الدراية والبلاغة ، وإن رام مختصراً ملخصاً فعليه بتفسير "الجواهر الحسان" للشيخ العالم العارف عبد الرحمن الثعالبى الجزائرى ، وهو مختصر نافع غاية النفع ، لخص فيه تفسير ابن عطية أبدع تلخيص ، وأتى بزيادات رائقة نافعة من نحو مائة مؤلف من علوم مختلفة ، فهى الآن جميعها ثمانية أسفار من التفسير ، فمن شاء فليكثر فإن الموضوع خير كله ، ومن أراد حل نظم القرآن الكريم فى لغة أردوية هندية بأبدع أسلوب وأفصح تعبير فى أقصر وقت فعليه بمطالعة الفوائد التفسيرية على القرآن لشيخ مشايخنا شيخ العصر العارف مولانا محمود الحسن الديوبندى المتوفى ١٣٣٩هـ المدعو " بشيخ الهند " رحمه الله تعالى ، ومحقق العصر الحاضر شيخنا ومولانا شبير أحمد العثمانى ـ رحمه الله تعالى ـ ، فإنهما أتيا فيها بعجيب العجاب فى حل نظم الكتاب وإفصاح غرض التنزيل بكلمات كلها درر ذات بهاء وغرر ذات سناء ، وربما لاتحل عقده من تصفح هذه المجلدات الكبيرة وتفقد هذه المادة الزاخرة ، وتراها قد حلت فيها بأخصر عبارة أو ألطف إشارة ، فشكر الله مساعاهما الجميل ، وهى مما لايستغنى عنها الفضلاء بحال فضلاً عن طلبة العلم فى عهد التحصيل ، فإنه ليس فى العربية فى كتب التفاسير المطبوعة التى بأيدينا ما يخلفها أو ينوب منابها أو يتحاشى عنها ، لا أقول : إنها غنية عن مراجعة تفاسير القوم بل أقول : كما إنها ليست غنية عنها كذلك التفاسير ليست غنية عنها .

التفاسير المفيدة وخصائص التفاسير المطبوعة

ثم أوضحت في محاضرة لي ما ذكرته هنا وملخصها أني جعلت التفاسير المطبوعة على أصناف أربعة :

١ ـ تفاسير لعلماء العربية وأئمتها كـ " الكشاف " ، و" أبي سعود " ، ومختصرات الكشاف كـ " البيضاوي " ، والمدارك ، وتفسيري أبي حيان : " البحر المحيط " و" النهر الماد من البحر " و" الدر اللقيط من البحر المحيط " ، وقد فصلت القول تفصيلاً في مزايا " تفسير الكشاف " وفوائده مع التنبيه على تعصبه للاعتزال ، وطعنه على أهل السنة ، ورميهم تارةً بالجبرة ، وتارةً بالحشوية ، وقسوته في الكلام عليه حتى بلوغه إلى السب والشتم ، وعدم نزاهة لسانه في الردود العلمية مع زهده وورعه ، فسبحان الله قاسم الغرائز وخالق الطبائع ، وذكرت أنه لا يقوم مقامه كل من جاء بعده ولخص كلامه أو غير لفظه أو زاد عليه الأعاريب .

وأحسن تفسير بعده هو تفسير أبي سعود " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " وفيها بعض فوائد من بعض الجهات تزيد على " الكشاف " ، وعلى كل حال المفسرون من أهل العربية كلهم عيال على " الكشاف " لحمتها وسداها منه ، وكذلك أثنيت على تفسير للشيخ عبد الرحمن الجزائري الثعالبي "الجواهر الحسان" الذي لخص فيه تفسير ابن عطية وزاد فيه من مائة مؤلف ، وبالجملة هذه تفاسير أئمة العربية التي هي متداولة مطبوعة .

٢ ـ تفاسير المحدثين و" تفسير ابن جرير " و" تفسير ابن كثير " و" الدر المنثور في التفسير بالمأثور " تغني هذه الثلاثة عن البقية .

٣ ـ تفاسير المتكلمين كتفسير الإمام الفخر الرازي " مفاتيح الغيب " وملخصه للنيسابوري " غرائب الفرقان " ، وأقدم تفسير فيها "التأويلات"

للشيخ إمام أهل السنة أبي منصور الماتريدي، وشرحه للشيخ أبي بكر السمرقندي، ومن أحسن نسخه بالخط الجيد نسخة مكتبة الحرم المكي، وهو تفسير جليل إلى الغاية، وفيه أبحاث كلامية واسعة.

٤ـ التفاسير التي لها عناية خاصة بالأحكام الفقهية وبيان المذاهب كتفسير "أحكام القرآن" للقرطبي، ولكن لاتقل عنايته بالعربية واللغة من عنايته بالفقه، وكـ "تفسير الجصاص أبي بكر الرازي" أوسع تفسير في مسائل الفقه وسرد الأدلة وبسطها، وألف كالمقدمة لتفسيره "الفصول في الأصول" ونسخته الجيدة في مكتبة الحكومة بالقاهرة، وقد استنسخناها، والنسخة المنقولة عند إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد دكن بالهند، والجصاص إمام في الأصول والكلام والفقه والحديث محقق واسع الاطلاع، وكتفسير القاضي أبي بكر بن العربي، وكتفسير الشيخ القاضي ثناء الباقي بتي ـ في نواحي دهلي ـ الذي سماه باسم شيخه الشيخ "مظهر جان جانان" النقشي العارف بالله سماه "التفسير المظهري" وهو تفسير بارع في تحقيق المذاهب، وقد طبع في عشرة أجزاء، "والتفسيرات الأحمدية" للشيخ أحمد الجونفوري الهندي مختصة بآيات الأحكام المشهورة.

وهناك قسم خامس من تفاسير الصوفية كتفسير الشيخ الأكبر والغزالي، ويقرب منها "تبصير الرحمن" للمهائمي الهندي وفيها نفائس، وقد أراد السيد محمود الآلوسي مفتي العراق أن يجمع هذه الأقسام الخمسة كلها في تفسيره "روح المعاني" فكان أجمع تفسير جامعاً لهذه المزايا بعبارة متينة جيدة يشبه عبارة "فتح الباري" للحافظ ابن حجر والغالب عليه مسحة العربية والكلام، ولتأخره في العهد تعرض لمسائل عصرية من المشكلات لاتجد في غيره، وربما يتعرض لجواب ما يورده الرازي في تفسيره ثم لايجيب.

شذرة من مآثر علماء الهند ولا سيما لعلماء ديوبند مما يتعلق بالتنزيل العزيز ، والتنبيه على تفاسير أهل الحق وأهل الباطل

ولما بلغت إلى هذا المقام ناسب أن أبوح بما لعلماء الهند ولاسيما لعلماء ديوبند من المنزلة القاصية فى خدمة القرآن والحديث ، والذب عن حريم الشريعة الإسلامية ، والجهاد العملى والعلمى فى حرية الوطن واستخلاصه من إسارة الحكومة البريطانية وبذر نحبة الدين والغيرة الإسلامية ، ونفخ روح النهضة الإسلامية والحرية الوطنية فى قلوب أهل الهند من العوام والخواص ، وإنقاذها من مخالب الدولة الغادرة الخائنة الأجنبية ، وإنها منن كبرى أبين من فلق الصبح لايكاد ينساها المؤرخ على تقادم الأعصار ، وإنما أغرانى على إبراز هذه الخدمات الجليلة خفاءها على إخواننا القاطنين فى البلاد العربية ، وظلم بعض أهل الصحف والأقلام فى إخفائها وتدسيسها من غير أن يؤدوا حق الجوار بنصفة وديانة ، و بالأسف أين الإنصاف وأين الديانة ، طارت بها عنقاء مغرب ، وخالات الناس بالدهناء قليلة ، غير أن هذا الموضع ليس موضع استيفاء القول فيه ؛ فنقتصر على إيماضات وبروق تنبئهم على غوادى هاطلة ، والله المستعان والهادى إلى الحق .

فأقول : ومن مآثر علماء الهند " البحر المواج " تفسير القرآن الكريم بالفارسية للفاضل العلامة شمس الدين الدولت آبادى ثم الدهلوى من علماء القرن الثامن الهجرى من أصحاب الشيخ القاضى عبد المقتدر الشريحى الكندى ، ومنها : " تبصير الرحمن " تفسير فى أربع مجلدات بالعربية للشيخ على بن أحمد المهائمى المتوفى ٨٣٥هـ ، ومهائم بلدة على ساحل البحر فى قرب بمبائى ، وقد طبع بمصر وهو تفسير نفيس جيد اعتنى فيه بربط نظم التنزيل ونظام السور ، وفيه فوائد غزيرة ، ومنها : "التفسير المظهرى" بالعربية للشيخ المحدث المحقق القاضى ثناء الله الفانى فتى من تلامذة الحجة الشاه ولى الله الدهلوى صاحب " حجة الله البالغة " وغيرها ، وهو تفسير بارع ولاسيما فى بيان المذاهب

الفقهيـة وتحقيقها . وقـد طبع حديثاً فى عشرة مجلدات كبيرة ومنها : " سواطع الإلهام " لأبى الفيض الفيضى من علماء السلطنـة الأكبريـة لجلال الدين أكبر سلطان الهند فى القرن التاسع الهجرى ، وهو فسر القرآن كله بالحروف المهملة ، وتكلف فى هـذه الصنعـة حتى أصبح مهملاً ، غير أنه يستحق الثناء بهذه المكابدة البالغة ، وسعة اطلاع اللغة العربية ، وإعجاز هذه الصنعة فى سائر التفسير ، ومنها : " فتح البيان " للنواب صديق حسن خان القنوجى فى عدة مجلدات ، وغيرها من التفاسير بالعربية والفارسية ما يشكل استقصاؤها .

ثم أول من ترجم كتاب الله الكريم بالفارسية فى الهند (١) وسنّ للأمة الحاضرة سنةً مسلوكةً فى العالم هو الحجة العارف المحقق الشاه ولى الله الدهلوى المتوفى ١١٧٦هـ صاحب " حجة الله البالغة " و " البدور البازغة " و " الخير الكثير " و " التفهيمات الإلهية " و " إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء " و " المسوى " و " المصفى " شرحى " الموطأ " وغيرها من أسفار جليلة ، وأبدع فى الترجمـة وراعى فيها دقائق وأسرار لطيفـة لا يكاد يفهمها كل أحد ما لم يكن لهذه الحلية مجلياً ، وكتب عليه فوائد لطيفة مختصرة وجردها عن الإسرائيليات سماها " فتح الرحمن " وكأنه وضع بذلك أساساً للتوحيد للأمة المسلمة ، ورحمه الله تعالى فإنه قد أغنانا عن الخوض فى بحث عدم جواز الترجمة باللغة غير العربية كما دار البحث مدةً فى علماء مصر . وظاهر أن فصاحـة القرآن المعجزة لاتدعيها الترجمة مثلها حتى يتوهم الخطاط ترجمته عن إعجازه ويقدح ذلك فى فصاحـة التنزيل ، ولا ريب أن فهم معانيه بتحصيل ذرائعه من تحصيل العلوم العربية ومايناط به أمره أولى وأعلى ، ولكن من لم يتيسر له ذلك فهل الحرمان له

---

(١) وترجم قبلـه الشيخ حسين الكاشفى فى ضمن تفسيره بالفارسية ، وقبل الكاشفى ترجمة بالفارسية منسوبة إلى الشيخ سعدى الشيرازى . منه

عن فهم القرآن المجيد أولى أو فهمه بترجمة فى لغته الوطنية أولى ؟ وأرجو الثانى أولى بالاعتبار ، وإن كتاب الله أنزل للناس كافة إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم .

ثم لاريب أن أصول الدين التى أرشد إليها القرآن علمها فرض على كل مكلف ، وتعلم العلوم العربية ليس بتلك المثابة ؛ فلو يدار أمر فهم القرآن على تلك العلوم ، ومن القرآن ما هو فرض علمه لكانت هذه العلوم فريضة على المكلف ؛ فإن ما كان مقدمة لأمر واجب فهو واجب كما تقرر فى موضعه ، سلمنا أن الترجمة ليست بعزيمة ، ولكن الاستمساك بالرخصة فى موضع يخاف هذا الأمر رأساً من العزائم ، ثم إن الله تعالى لم يكلف كل أحد بمعرفة إعجازه وبراعة إطنابه وإيجازه ، كيف وهذا وراء قدرة كل أحد ؛ فرجل تيسر له ذلك وآخر يحرم منه ، ولا ريب أن القرآن بلاغ للناس وهدى للعالمين ؛ فإن ترجم بلغات العالم ونشرت فيهم لتمت على العالمين حجة ربهم ، وقد قال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وأى تيسر إذا لم يكن ترجمته جائزة باللغات العجمية ، ومن خصائص القرآن أنه كل يستفيد منه العالم بعلمه والعامى بفهمه إذا اطلع على معناه وغرضه فليذكر وليعتبر ، وأما التفاسير فلا يكاد يقوم بأعبائها إلا أفذاذ وأفراد من العلماء الأعلام فضلاً عن الأميين والعوام ، وبالجملة : علماء الهند مجمعون على جواز تراجم القرآن فى هذا العصر ، وعلماء مصر ومشيخة الأزهر أفردوا هذه المسألة بالتأليفات ؛ ولم ينفصم فيهم إلى الآن أمرها ، وليس هذا موضع إنهاء البيان ، والله الموفق .

ثم الشيخ العارف الشاه عبد القادر نجل الشاه ولى الله الدهلوى المتوفى ١٢٣٠هـ تلا تلو والده ، فترجم القرآن الكريم باللغة الأردوية الهندية ؛ فأبدع فى الترجمة وأجاد ، وعليها مدار الأمة الهندية اليوم فى الترجمة وفهم كتاب الله العزيز ، وبلغ فى تنقيحها وتهذيبها وإجادتها وبراعة أسلوبها ودقة مغزاها منزلة شاسعة حتى أصبحت كالسهل الممتنع ، وزاد نفعها بتحرير

فوائد شريفة ما كشفت الأستار عن خرائد أغراض كتاب الله الحكيم ، وعسى أن لايوجد لبعضها نظير فى هذه المادة الوافرة من كتب التفاسير فما ظنك بكلها ، وأما الترجمة فكادت أن تكون معجزة" باعتبار بعض خصائصها لوكان يمكن أن يكون كلام البشر معجزاً ، غير أن الله تحدى بنظم كتابه الذكر الحكيم خاصة" ؛ فهذه مزية لاتجارى ولا تبارى . وكذا ترجم القرآن نجله الآخر الأكبر من أخيه الشاه عبد القادر الشاه رفيع الدين الدهلوى المتوفى سنة ١٢٣٣هـ ترجمة" أردوية" راعى فيها الترجمة اللغوية بترتيب كلمات القرآن ، وهى أنفع للعوام من ترجمة الشاه عبد القادر رحمه الله .

وأملى نجله الأكبر البحر الزاخر الرحلة الحجة العارف الشاه عبد العزيز الدهلوى المتوفى سنة ١٢٣٩هـ على بعض أصحابه تفسيراً للقرآن العظيم من الجزأين الأخيرين ،والجزء الأول والثانى إلى قوله تعالى : «وأن تصوموا خيراً لكم» وسماه " الفتح العزيز " وأتى فيه بعلوم سامية ، وفوائد غزيرة عالية ما يقضى العجب عن تبحره الجامع ، واستحضاره المحير ، وحافظته الزاخرة ، وإحكام صنعته ورصانة تعبيره ؛ فإنه أملاه عن ظهر قلبه من غير مراجعة كتاب ولا تسويد فى البين ، سبحان الله ! يعطى من يشاء ما يشاء ، وكان يقول شيخنا إمام العصر : يا ليته لو كمل هذا التفسير على هذا النمط البديع لقضى عما حق تفسير القرآن العظيم حسب المقدور البشرى ، ثم بعد ذلك بنحو تسعين سنة" أو مائة سنة ترجم القرآن العالم المتقن الثبت الثقة مولانا الشاه أشرف على التهانوى الديوبندى ـ طالت حياته ـ من تلامذة القطب العارف مولانا المحقق الشيخ محمد يعقوب النانوتوى المتوفى سنة ١٣٠٠هـ صدر الأساتذة بدار العلوم الديوبندية بعهده ومن تلامذة الشيخ المحقق شيخ الهند الديوبندى الذى سلف ذكره رحمه الله ، وفسر القرآن معها بالأردوية تفسيراً فى مجلدات كثيرة ، كابد فيه لمطالعة كتب المفسرين ، ولخص فيها أموراً مفيدة" ، وحل مواضع مشكلة غامضة

بوجه أنيق ، وزاد نفعها بفوائد بالعربية لطلبة العلم وسماه : " بيان القرآن " ثم ترجمه العالم الفاضل الذكي مولانا عاشق إلهي الميرتي الديوبندي ، وضم مع الترجمة فوائد تفسيرية نافعة .

ثم لما أسر شيخ الهند في نهضة الحرية الوطنية وذهب به إلى جزيرة "مالطه" أفرغ نفسه واستفرغ وسعه في مطالعة القرآن المجيد . فأحس "ضرورة" دينية" لترجمة القرآن المجيد على أسلوب عصري بالحوار الرائج بين القوم بالأردوية وتحرير فوائد تفسيرية . فشرع الترجمة حتى استوفاها وأوفاها حقها في عهد إسارته في السجن ، وأناط الأمر على ترجمة الشاه عبد القادر تحلى هذه الحلية الفسيحة الشاسعة لما كان يعتقد في ترجمته أن البراعة عليه مما يكاد يستحيل ، غير أنه لما كان من دقة النظر ولطافة الفكر وشرح الصدر ونور القلب بمكان لايدرك شأوه في عصره ، ولا يشق له غبار ، فغير بعض تعبيراته بمناسبة وحسن تصوير مراعياً سائر المزايا التي احتوت عليها تلك الترجمة النفيسة ، فراعى الفروق في الترجمة بين الصفة والبدل وعطف البيان ، وإذا احتمل المقام كلا منها فأيها ألطف ، وتضمنت هذه الترجمة دقائق ومحاسن تأخذ بالقلوب كل مأخذ ، وكلما يغوص فيها النظر ويغور فيها الفكرة تبدو محاسنها :

غراء مبسام كأن حديثها ... در تحدر نظمها منثور

وكما قال أبو نواس :

يزيدك وجهه حسناً ... إذا ما زدته نظراً

وكما قال قائلهم وحامل لوائهم :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه ... متى ما ترق العين فيه تسهل

ثم شرع عليها في فوائد تفسيرية فوصل فيها إلى تمام سورة النساء ، وأتى فيها بكل ما يحتاج إليه نظم التنزيل العزيز في تنقيح مراده وإبداء غرضه بنهج

بـــديع ولفظ نصيح ، فأطلق من السجن ووصل إلى الهند ، وتهاجم عليه المرض ، ولم يمهله الأجل المحتوم حتى حان القضاء وضاق الفضاء ، ووصل إلى الرفيق الأعلى سنة ١٣٣٩ ﻫ بعد مائة سنة كاملة من وفاة الشاه عبد العزيز الدهلوى ، ثم أضاعت يد الطوارق من فوائد سورة آل عمران ومضت برهة عليها ولم يكن عبقرياً يفرى فريه ، فيكمل الفوائد ويتم ما يريده الشيخ رحمه الله ، حتى بدت هذه السعادة الأزلية فى حق من هو من أرشد تلامذته وأخص أصحابـــه شيخنا محقق العصر الحاضر مولانا الشيخ شبير أحمد العثمانى صاحب " فتح الملهم " ـ رحمه الله ـ ، فأكمل فوائد سائر القرآن مراعياً أصول شيخه بكلمات كلها درر وغرر فى نحو ثلاث سنين ، وأتى فيه بما يحتاج إليه أهل العصر من تزييف أقوال سخيفة مردودة من بعض ملاحدة أهل العصر مثل محمد على القاديانى اللاهورى صاحب " بيان القرآن " فى الأردوية والإنكليزية، وغيره من أهل البدع والأهواء ، وقد سلف ذكر هذه الفوائد فتذكره .

فهذه هى تراجم أهل الحق تراجم صحيحة نفع الله بها الأمـــة كثيراً ، وأصبح عليها المـــدار فى أقطار الهند ، وسارت بها الركبان فى الأمصار ؛ فأكثر العلماء والطلبة الذين يدرسون القرآن ويتدارسونه ينتفعون بها ، ولا سيما الترجمة الأخيرة مع الفوائد ، وبعد ذلك وفى أثناء ذلك تتابعت تراجم القرآن وفوائده التفسيرية بعضها صحيحة من أهل الحق كتقريرات لترجمة القرآن أفادها العالم العامل العارف مولانا الشيخ حسين على الفنجابى ـ رحمه الله ـ من تلامذة قطب العصر مولانا المحدث أبى مسعود رشيد أحمد الكنكوهى الديوبندى المتوفى سنة ١٣٢٣ ﻫ ، ثم ظهر فيما بعد أن أماليه هذه فيها مؤاخذات وانتقادات زلّ فيها القلم عن الجادة القويمة لا ندرى هل هى من الضابط أو صاحب الأمالى فيستأنف النظر فيها ، ورأيت فى عدة مواضع ما يحتاج إلى التنبيه على التقصير

فى التفسير ، فمنها فى آية ذبح البقرة ، ومنها فى قوله : « فأتوا بسورة من مثله » ، وفى قوله : « لا تقولوا راعنا » ، وفى آية تحويل القبلة ، وفى قوله : « ومن يكفر بالطاغوت » ، وفى آية الكرسى وغيرها ، وسمعت أن بعض الأفاضل من أهل العصر قد قام بالرد عليه فأفرد فيه تأليفاً ، وإلى الله المشتكى. وكذا لمولانا المحترم مولانا أحمد على اللاهورى - رحمه الله - ترجمة للقرآن وفوائد تفسيرية .

وبعضهم خلطوا صالحاً وسيئاً كترجمة دپتى نذير أحمد الدهلوى ، والميرزا حيرت الدهلوى ، ومنهم من حرف مراد القرآن ومسخ معناه ، وأفرغه فى قالب هواه ، وجعل الهاوية مهواه ، مثل محمد على القاديانى الذى أشرنا إليه ، وعمدته فى ذلك تفسير السار السيد أحمد خان الدهلوى بانى كلية عليكره بالهند ، والطبوب أحمد حسن الأمروهى المرزائى القاديانى واسم تفسير هذا الأمروهى " غاية البيان " فيما أتذكر ، وحشاه بالأباطيل وحاول إضلال الناس .

سر سيد أحمد خان الدهلوى بانى الكلية الإنكليزية وتفسيره

ولما جرى ذكر تفسير السار أحمد خان الدهلوى لكان من المداهنة المذهبية والنفاق الجلى لو لم يكشف عن أمر هذا الرجل وتفسيره ، فإنه أصبح زعيماً وقدوة لكثير من أهل الأهواء من المتنورين الذين أظلم عليهم سبيل الملة الحنيفية البيضاء ، وهو رجل زنديق ملحد أو جاهل ضال أراد الوصول إلى الحق فأخطأ الطريق السوى ، وأناط الأمر فى أمور الشريعة وشعائر الدين على عقله السخيف الزائغ فضل وأضل ، وكان دأبه أن كل ما يرد من أهل أوربا من الاعتراضات السخيفة على الملة الإسلامية كان يسلمه ويقبله ، ثم طفق يتأول القرآن والسنة ، وأخذ يقرب الإسلام إلى الكفر حتى يجعلها ديناً

واحداً ، وكأنه أراد التقرب بـه إلى أهل الكفر الذين كانت بأيديهم الحكومة فى الهند ، فأنكر وجود الملائكـة وقال : إنها القوى الملكيـة للخير فى فطرة الإنسان وجبلته وليس عالماً مستقلاً خارجاً عن وجود الإنسان بل هى صفات منضمة إليه ، وأنكر الشياطين وقال : هى قوى الشر المودعـة فى فطرة الإنسان ، وأنكر الحشر والمعاد الجسمانى بل أثبت الروحانى فقط كملاحدة الفلاسفة ، وأنكر السماوات ، وأنكر الأرواح .

وأنكر النبوة الشرعية التى هى موهبة إلهية ختمت لسيدنا خاتم الأنبياء محمد ﷺ وزعم أنها أمر يحصل بالكسب ، وبدل صفاتها وغير أماراتها ، وسوى بين النبى وبين كل من قام مصلحاً فى ملة من الملل أيما كان ، وأنكر الخوارق الصادرة مـن الأنبياء بأمر الله القدير ، وقال : إن الخوارق غير مقدورة لله تعالى ، وكأنـه أبطل التكليف والتشريع ، وتأول فى سائر الضروريات الدينية القطعية والنصوص الصريحة الصحيحـة القطعيـة دلالـة وثبوتاً حتى قال فى خطبة ألقاها فى بلدة ميرتهه : إن الإسلام فوض إلينا أمور الدنيا فنعمل فيها ما نشاء وكيف نشاء حيث ورد : « أنتم أعلم بأمور دنياكم منى » الحديث ، وأما أمر الدين فوسع فيه علينا حيث ورد : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنـة وإن زنى وإن سرق » الحديث ، فهذه كانت عنده زبدة الشريعـة وخلاصته وصار كالقرامطـة الباطنيـة والإسماعيليـة والمزدكية والاخشونية وغيرهم مـن إخوانه الملحدين ، والزنادقـة المتأولين فى ضروريات الدين ، وكان هو تلميذهم الروحانى أخذ منهم ثم زعم كأنـه اخترعها ، وسول له الشيطان أمره فتأول نصوص القرآن والحديث بتأويلات سخيفـة ركيكة تعافها الطبائع السليمة ، وتمجها الأسماع الصحيحة ، لا يتأول بمثلها كلام عـاقل فكيف بكلام بليغ وكيف بكلام الله المعجز بلاغـة

وفصاحة" ، وكيف بكلام من أوتى جوامع الكلم ، وقد أعمى الله بصيرته فكان لا يعلم هل لتلك التأويلات مساغ فى العربيـة ، نعم أرخى عداء الدين على بصره سدول الجهل البين العوار ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، وزعم أنها خدمة للدين ، وبه يتحد الكفرة والمسلمون .

فهكذا حرف القرآن ومسخ الدين ، وشوه وجه الشريعـة المطهرة ، وألف على هذه الأصول الموضوعة تفسيراً سماه " تفسير القرآن " بالأردوية ، وحق أن يسمى بتحريف القرآن ، وقد سبق فى التحريف على أحبار اليهود بمنزلة شاسعـة هم دونه بمراحل ، غير أن الله وعد حفظ نظمـه الجزيل ، فلم يقدر أن يحرفه ويبدله ، وإلا فلم يكن أن يكفـه عنه أمر ، ولم يكد أن يصده عنـه شئ ، فهكذا باع دينـه بنهضـة الأورباوين مجاناً ! ثم لم يقتنع بهذا القدر بل بث إلحاده فى تفسيره وسائر مؤلفاته وخطبه ، غير أن الله وعد صيانـة الدين إلى حين ، وجرت سنته فى عباده لم يخل زمان من أهل الحق القائمين بأمر الدين ، ومن المثل : لكل فرعون موسى ، ولكل خرق راقع ، أقام لدمغ كفره وإلحاده ، وتطهير الدين من خبائثه وأنجاسه . الفاضل الخبير مولانا أبا محمد عبد الحق الدهلوى مسكناً والديوبندى تعلماً وتلمذة" المعروف " بالحقانى " فأبلغ فى الرد عليه قلماً ولساناً ، ووضع جمر الغضا فى ضلوعه وجوانحه ، وأباد ما سنح له من بوارحه وسوانحه ، وهكذا يقيم الله لمكافحة الفئة الضالـة رجالاً" حلب الدهر أشطرهم محنكين مدربين ، يعرفون دسائسهم ووساوسهم ، ويحسون رذائلهم وخسائسهم ، فيميزون من الطيب خبثهم وخبائثهم .

وبالجملة : فصنف هذا الفاضل تفسيراً فى الرد عليه وسماه " فتح المنان " وقد نفع الله بـه الأمة ، وله كتاب مبسوط كالمقدمة لتفسيره فى استيصال

شأفة إلحاده والرد على أصوله الزائغة وسماه : " البيان فى علوم القرآن " وقد ترجم إلى الإنكليزيــة فشرق وغرب ؛ فهذه نبذة مــن شئون ذلك الرجل ، فأنصف أيها الخبير المنصف وبالله أنشدك فإن الإنصاف خير الأوصاف هل غادر الرجل شيئاً مــن الدين أوحمية الوطن وحريــة الملك لم يبذل جهده فى إبادتها ؟ ويا ليت لوكان كفره وإلحاده غير متعد ، وقد حاول هو أن يدين الناس كله بدينه ، ويؤمنوا بما تفوه به بشدقيه ، وقد استهزأ فى بعض المواضع من كتبه بحجة الإسلام الغزالى ـ قدس سره ـ فانظر إلى أين بلغت سفاهة هذا السفيه الملحد ، وإلى أين بلغ عواثه الأنكر ، وزعم أباطيلــه وتسويلاته أسرار ودقائق حتى قال فى تفسيره فى حق الصحابــة : إن رعاة الإبل لم يكونوا أن يفهموا هذه الحقائق ؛ فلذا لم يصدع بها الشريعــة بل مثل ثم تمثيلات تناسب أفهامهم . ويا للأسف ! تفاقم الشر وبلغ السكين العظم .

وأنا أتعجب من المؤرخ الشهير بالهند شبلى النعمانى صاحب كتاب " سيرة النبى " و " الفاروق " وغيرهما أنه كيف يعتقد فى ذلك الرجل ما يورث العجب ، بل أتأسف بذلك مالا أكاد أطيقه ؛ فإنه يخاطبه فى مكاتيبه بقوله : سيدى ومولائى ، ولما مات ذلك الرجل كتب إلى بعض أصدقائه : تزعزت أركان الملة أعنى انتقل السيد أحمد خان بهادر إلى جوار رحمة ربه ، وذلك يوم الأحد ٢٧ مارس ، وتفرق شملنا أنى لا أقدر على أن أشتغل بشئ إلا بعد برهة من الزمان ، والسلام . شبلى نعمانى ٢٩ مارس ١٨٩٨ " مكاتيب شبلى " .

فانظر هذا لفظــه بالعربيــة ؛ فلا أدرى ولست إخال أدرى هل هى مداهنة دينية لمصالح مشتركة أو ذلك من ائتلاف أرواحهما ،واشتراك مقاصدهما فى العلم والفهم ، ذلك مبلغهم مــن العلم ، وإنما أبوح بــه على أعين الناس إذ ليس من الدين أن يغمض عن كافر ، كما ليس منه أن يكفر مسلم ، والناس

فى هذه المسألة على طرفى النقيضين : إما جاهل مفرط ، أو مفرط كما قاله شيخنا إمام العصر فى رسالته " إكفار الملحدين " بل الإغماض عن الكافر أشد ضرراً على الإسلام من إكفار مسلم وليس هذا موضع بيانه ، فارجع البصر كرتين إلى ذلك المكتوب ، فإذا كان مثل ذلك الرجل من أركان الملة فما ظنك بالملة . وأنت ترى أنه لم يغادر ركناً من أركان الملة إلا وقد زعزعه لو كان يتزعزع بهذه المساعى الخائبة ، ويا للعجب ! رجل حرف القرآن والدين ، وجعله أمراً ذهنياً ، وساعد الدولة البريطانوية فى غرز شبكتها ، فخان الله ورسوله ، وخان الوطن ، وخان إخوان الملك وأبناء الوطن فى تأييد سلطة الحكومة الملعونة ، ثم يكون هو من أركان الملة ؟! لوكانت الملة هذه فأبرأ إلى الله من هذه الملة الزائغة .

ثم الأسف كل الأسف على حال هؤلاء الرجال يشار إليهم بالأصابع وهذه عجرهم وبجرهم ، وذاك خبرهم ومخبرهم ، وهذا المؤرخ الفاضل نفسه قد شحن كتبه ورسائله بأمور لايكاد يقبلها رجل يؤمن بالله ورسوله وثلج بالإيمان قلبه وشرح الله صدره ، واتفق هو فى كثير من أصوله مع الرجل المذكور حاله ، وغاية ما يمكن أن يعتذر من هذا المؤرخ أن نعده من غلاة المعتزلة وإلا فالخطب جليل ، والرزء فادح ، وقد بلغ السيل الزبى ، وتفاقم الفساد ، وتراكم الشر فى الأمة ، ودب فيهم داء المداهنة ، وسرى فيهم النفاق إلا من أتى الله بقلب سليم ، أو عصمه الله رب العالمين ، ثم إذا كان هذا حال الرجل وشأنه فما ظنك بأتباعه وذرياته ، والله الموفق والهادى إلى صراط مستقيم . ثم العجب من أتباع هذا المؤرخ كيف يرخون السدول على ما خالف فيه صرائح السنة وعقيدة الإسلام الإجماعية ، نعم إن الأرواح جنود مجندة ، ما ائتلف منها تعارف ، وما اختلف منها تناكر ، ثم لكلهم هفوات فى القرآن والحديث والتاريخ يليق بها التنبيه غير أن هذا ليس موضع ذكرها ، هدى الله الأمة

المحمديـــة كلها للسداد وجنبنا عن الزيغ والإلحاد ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد ، توفانا الله على الديانة الإسلامية والشريعة المحمدية ، والله الهادى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين .

" ترجمان القرآن لأبي الكلام أحمد الدهلوى "

الخير أبقى وإن طال الزمان بـــه والشر أخبث ما أوعيت من زاد

" ترجمان القرآن " ترجمة بالأردويـــة للقرآن ، وعليها فوائد وجيزة ومبسوطة لأبي الكلام أحمد الدهلوى لابد أن أبين شأن هذا الكتاب وما فيه من مخالفة السنة وإجماع الأمة ، وإنما حثنى على هـــذا كلمة لبعض أهل العصر أشاعها فى جريدة القاهرة " الفتح " من العدد رقم ٥٦٢ وقد قيل : يداك أوكتا وفوك نفخ ، وأثنى عليه بما لايليق به ،وأغمض عما فيه من المثالب والهفوات أو لم يدرها ، ولا يحرى بنا أن نخدع علماء مصر ونغرهم بالثناء الكاذب على رجل من رجال الهند ، فإن النصح لله ولرسوله أعنى بنا من المدح الكاذب على أحد من أبناء الهند ، ولا يليق بنا أن نشترى سخط الخالق فى رضاء مخلوقه ، ورضاء الله ورسولـــه أهم وأقدم من رضاء رجل لم يحتفل فى أى واد أرداه قلمه ولسانه ، وقد أومضت إلى بعض هفواته فى رسالتى " نفحة العنبر " من قبل طلباً لرضاء الله تعالى وأداءً لحق البلاغ الدينى إلى إخوانى طلبة العلم وعوام الأمة المسلمة الهندية .

وأنا أدرى أن الناس سيفتحون أفواههم ومحابرهم للازدراء بى والطعن علىّ والرمى بالجمود والعصبية والبلادة . بيد أن تلك سنة جارية فى القرآن ، وقال شاعرهم :

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

وقال آخرهم :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قال صاحب الكلمة :

ومن التفاسير التي ألفت باللغة الهندية تفسير الإمام أبي الكلام الذي لا يضاهيه تفسير في العالم الإسلامي غير تفسير الإمام الحجة المغفور له السيد رشيد رضا اه .

ولا أدري هل أراد بتلك الجملة ثناءً خرج من جذر قلبه ائتلافاً بما قاله ذلك المفسر ، أو داهن لمصالح يقتضيها العصر ، وأياً ما كانت فلست أدين الله بشيء منه فأقول : إن أبا الكلام أحمد الدهلوي رجل وقاد القريحة ، واسع الاطلاع صاحب بيان وبنان في الأردوية ، وعسى أن يكون فريداً في بدائع الإنشاء ومحاسن الخطابة في الأردوية بعصره . بل كاد يكون مخترعاً لبديع أسلوبه ، وحياته قبل عشرين عاماً كان أنفع للقوم من حياته الحاضرة ، وله قدم راسخ في السعي لإنقاذ الوطن عن مخلب الحكومة الأجنبية وسلطة الدولة البريطانية ، ولم يأخذه فيه خوف الحكومة وصولتها ، ومن ثم سكت كثير من علماء الحق في شأنه وحاله .

وفي قلبي له منزلة من مساعيه الجمولة في سبيل حرية الوطن ، وأنه استحث في أوائل أمره كثيراً من أولي الهمم المتوانية ، وأيقظ الرقود في سبيل جهاد الحرية بإجراء جريدتيه " الهلال " و " البلاغ " ومخطابته الجاذبة للقلوب في المحافل السياسية ، بيد أنه رجل معجب بنفسه ، معجب برأيه وفكرته يزدري بالعلماء بل بأكابر علماء الملة إذا خالفت أقوالهم رأيه وهواه ؛ فأصبح بحيث ترى فيه شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجاباً برأيه ، وخروجاً عن المسلك القويم والعلم الصحيح ، كان في أول أمره رجلاً صحيح الاعتقاد فيما نعلم منه ويشهده

به آثاره ومقالاته في جرائده ورسائله إلا أنه لم يكن مقلداً في الفروع لأحد من الأئمة كأهل الحديث من القاضي الشوكاني والنواب صديق حسن خان وغيرهما غير أنه لم يكتف بهذا القدر بل أخذه الموجدة على العلماء الحنفية حتى إمام الأئمة فقيه الأمة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في " تذكرته " فكان هذا بسوء الأدب مع أكابر الأمة ، وسعى لأن يكون إماماً متفقاً على إمامته في الهند ، وأميراً للمسلمين في أمر دينهم ودنياهم ، وحاول أن يجعلوه إمام الهند ، وأن يجمعوا على ذلك ، ولكن كان في الهند رجال أولو علم صحيح ، أصحاب معرفة وتقوى وديانة حقة ، وكان هو كما قلت : في سعة من أمر دينه حبله على غاربه ، غير مقيد في رأيه ، وكان دون هؤلاء في العلم والعمل بمراحل ؛ فقام علماء ديوبند وصدعوا بالحق بأنه ليس أهلاً لذلك ؛ فإنهم تفرسوا في إمامته من المفاسد التي يشكل أن يغلق بابها فيما بعد ؛ فلم يفز بما كان يهواه ويتمناه .

وبالجملة : إنه كان على تلك الحالة برهة أعلن أنه يؤلف تفسيراً فاستشرفت إليه الأعناق وارتقبه الناس ترقب الهيان إلى الزلال العذب والنمير البارد ، حتى يطبع جزء ثم جزء ثم ترجمة القرآن وعليها فوائد مختصرة ومطولة وسماها : " ترجمان القرآن " وبسط القول في تفسير سورة الفاتحة ، فأخذته باشتياق ، وطالعت منه تفسير الفاتحة بأسره وعدة مواضع من تفسير آيات مختلفة متفرقة ، فانطفأت في قلبي لوعة الاشتياق ، بل تأسفت وودت أن لو لم يطبع لكان أحسن وأحسن ؛ فإنه كان له في القلب منزلة ، ورأيت أن الرجل تشعبت به الأهواء في كل واد ، ولم ينج من مداحض الأوهام ، فأحسست أن ذلك الإعجاب بنفسه وبرأيه أورده أولاً إلى انخلاع ربقة التقليد ، وانتهى به آخراً إلى موارد حائدة عن الصراط السوي :

وكل يدعي حباً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

شيء من هفواته

فما حقق ذلك الرجل فى تفسير : « اهدنا الصراط المستقيم » أن كل دين من الأديان فى العالم سواء كان دين النصرانية أو اليهودية أو الصابئية لو دان به الرجل فى صورته التى أتى بها شارع ذلك الدين كفى لنجاته يوم القيامة ؛ فإن أصل هذه الأديان كلها واحد وهو الإيمان بالله والعمل الصالح ، وشارع كل دين أتى بالتوحيد وهدى إلى العمل الصالح ، وإنما الشرك وأعمال الشر نشأت فى أتباع المذاهب من تحزبهم وتشيعهم ، وهو يردد ذلك فى تفسيره ، ويدندن حوله بعبارات مختلفة وأساليب شتى ، وهو يقول : إن القرآن ينادى بأعلى نداء إلى ذلك ، ويزعم أن ذلك الذى فهمته هو مغزى القرآن وغرضه ، ويستدل لذلك بقوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ - ٥٩) والعمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية والشرائع وليس المدار عليها عنده ، ويقول : إن تلك العبادات وتلك الشرائع ظواهر ورسوم ، وإنها صور وأجساد ليست هى حقيقة الدين ولا روحه ، فكل من أنكر الشرائع والأحكام التكليفية اعتقاداً فيكون عنده مسلماً ولا بد .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » وفى قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » : إن الإسلام عبارة عن الوحدة الدينية العامة لاتختص بشرع دون شرع ، فالملل كلها تدعو إلى هذه الوحدة العامة والصدق الكامل على سواء ، فليست الملة الإسلامية عنده مجموع الاعتقادات الخاصة والعبادات المخصوصة ، وهو يقول : وإن اختلاف هذه الرسوم والشرائع ومناهج التحنث والتعبد مما لم يكن منه محيص ، فليس مما ينكر أو يستحق الملام ، فأوسعوا له صدوركم

الضيقة ، وذروا ما أنتم عليه من التضييق والتحجر ، فلو تعبد أحد بالشريعة الموسوية ، وأحل حلالها وحرم حرامها ، ولم يتمسك بالشريعة المحمدية ولم يحل حلالها ولم يحرم حرامها بعد أن جاء الإسلام ونسخ الشرائع السابقة فذلك الرجل لا محالة مسلم ناج على ما تصدع به أصوله الموضوعة ، وغير ذلك مما موهه وزخرفه بأساليب إنشائه ، وحبره بتحبيراته ، وغر الناس بخضراء دمنته ؛ فهي بقعقع بالشنان وجوفه هواء ، ويجعجع من غير طحين ، وكله هباء .

وهذا الذي قلته مغزى عبارته الصريحة ، لا يكاد يتأول في شئ منه اللهم إلا أن يكون للصرائح تأويلات غير سائغة ؛ فإنه صرح به كفرق الصديع وضوء النهار ، ولم يترك لشفرة حزاً ، ولا للتأويل مساغاً في البين ، فهل قصر قلم الرجل عن إفصاح مرامه وهو رجل فصيح يقدر على الصدع بغرضه بلفظ ليس فيه عي ولايشو به نقص التعمية ودنس العجمة ، فكيف يؤثر تعبيراً لم يرد منه ما يتبادر إليه الذهن ، ويفتقر إلى صرفه عما يسرع إليه فكر الناظر مساقاً ومذاقاً ؟ فهل لك لذلك التأويل سبيل يشفي الغليل ويغني عن القال والقيل ؟ وهو يقول : إن الإسلام دعا الناس أهل الأديان كافة إلى أن يتمسكوا بعرى أديانهم منقحة منخولة مما خلطوا به من الباطل واتباع الهوى ، ولم يعزم عليهم أن يذروا أديانهم ويختاروا ديناً غيرها ، إلى غير ذلك من التلبيسات والتدليسات مما يوقع الناس في ورطة الهلاك وهوة الردى :

ألا تسألان المرأ ما ذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وكل امرئ يوماً سيعلم حاله إذا كشفت عند الإله الحصائل

وأهل جريدة "معارف" كتبوا في الرد عليه مقالة مبسوطة ، وقابلوا تراجم بعض آياته " وترجمانه " بما ترجمه قبل ذلك بعشرين عاماً في جريدته

" الهلال " ، وأوضحوا بما فيها من الفرق البين والاختلاف المبين ، فلا أدرى كيف يكون هذا التفسير مما لا يضاهويه تفسير فى العالم ؟ نعم لا يضاهيه ولا يوازيه بل لا يدانيه تفسير فى مثل هذه المخترعات التى ليس عليها سلطان ، والهفوات التى لم يقم عليها برهان ، والعجب أن صاحب تلك المقالة فى جريدة " الفتح " الذى يثنى على تفسيره ويعتقد فيه من المديح الغالى من رفقاء أعضاء جريدة " المعارف " وهو على بصيرة من مقالة " المعارف " فكيف قال ما قال ، وإلى الله الاشتكاء ، فقد بلغ الحزام الطبيين ، وبلغ السكين العظم ، لا عاصم اليوم إلا من رحم .

ثم إن ما ذكرته هى أصوله التى عليها أساس تفسيره ، وأما تحويل كثير من الآيات إلى ما يهواه والتأويل فيها بما لايحبه الله ولا يرضاه ، وما لم ينقل ممن أنزل عليه القرآن ، ولا من أصحابه المخاطبين به ، بل ثبت وصح خلاف ما قاله كثير ليس هذا موضع سرده ولا موضع الرد عليه ، وإنما نقتصر على تفسير بعض الآيات إيقاظاً للغافلين ، وتحذيراً للمغرورين ، فقال فى تفسير قوله تعالى : « كونوا قردةً خاسئين » : كونوا أذلاء مهانين كالقردة ، منحطين نازلين عن رتبة الإنسان ؛ فتخرجون من محافل المروءة والإنسانية مدحورين وقال فى (ص - ٢٦١) فى تفسير قوله تعالى : « فقال لهم الله موتوا » أى لكم الموت بجبنكم يعنى يغلبكم العدو وتحرمون من حياة الفتح والظفر على العدو « ثم أحياهم الله » أى تنشأ فيهم روح العزم والثبات حتى استعدوا للقتال فرزقوا الفتح والنصر اه . وهكذا فى قوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية » الآية ، حاول الصرف عن الظاهر فلم يقدر إلا فى لفظ واحد ، راجع (ص - ٢٦٩) من " ترجمانه " . وهكذا فسر قوله تعالى : « فخذ أربعةً من الطير » الآية ، كما فسره أبو مسلم الأصفهانى المعتزلى ، كما حكاه الإمام الرازى فى " تفسيره "

وأشار أبو الكلام فى "المنهية" على تفسيره إلى تزييف قول جمهور المفسرين راجع (ص - ٢٧٠ و ٢٧١) وهكذا حرف معنى قوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » فى (ص - ٢٠٠) وغيرها من تأويلات الآيات بما لا يتأولها أئمة أهل السنة وجماهير الأمة .

وكل تفسيره مشحون بأمثال هـذه التأويلات الركيكة التى لانفاذ لها ولامساغ ، ومن دأبه الخاص أنه لايلتفت قط فى تفسير الآيات إلى الأحاديث والآثار ، ويتوط الأمر على كتب التاريخ من مؤرخى اليونان والفرنسا وغيرهم وإن كان مدارها على الجزاف والخرص ، ولايلتفت إلى الأحاديث وإن كانت فى الباب موجودةً وكانت أقوى سنداً من تلك الآثار والكتيبات التاريخية التى ليس عليها دليل وبرهان ، كما قال جل ذكره : « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » ومن دأبه أنه إذا أقام رأياً فى أمر فيزعمه أمراً قطعياً بحيث لا يقاومه حديث مرفوع ولا أثر صحيح ولا دراية صحيحة ، ومن دأبه أنه يعزوا إلى المفسرين قولاً ضعيفاً فى آية ويكون هناك أقوال قوية صحيحة غيره ، فيرد على القول الضعيف ويتمسك بقول آخر من أقوالهم ، ويصدع به مستكبراً كأنه أبو عذرته وابن بجدته وأن المفسرين لا خبرة لهم به ، وربما يستهزأ بهم متمثلاً بقول الشاعر :

نزلوا بمكـــة فى قبائل نوفل ... ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وهكذا دأبه فى سائر تفسيره " ترجمان القرآن " ،

وذى خطل فى القول يحسب أنه ... مصيب فما يلمم بـه فهو قائله

وقد شاع له مكتوب فى بعض الجرائد الأردوية وصدع فيه بأن الأمور التى عليها مدار النجاة لابد أن يصرح بها القرآن كصراحة : « وأقيموا الصلاة » بل أصرح منها ، ولابد أن يأمر بأن يصدق به ، فكلما جاء فى القرآن أمر فى

غير الأمور التي عليها مناط النجاة ولم يكن منتظماً في سلك العقائد فلا يلزم المرأ قبوله واعتقاده ، وقال : ومن اعتقادي أنه لاينزل المسيح ابن مريم ـ عليه السلام ـ فكتبت إليه في ذلك : كيف تعتقد ذلك وقد صح في نزولـه أحاديث وتواترت فما قولك فيها ؟ فأجاب : " ذكر نزولـه في سلسلة أشراط الساعة وليس مما يدخل في العقيدة " اه . ويا للعجب ! أليس التصديق بما جاء به نبينا القرشي محمد ﷺ من العقيدة ؟ فإذا جاء رسولنا ﷺ بأمر وأخبر بوقوعه وصح الإسناد واتصل به وتواتر عنه شرقاً وغرباً على ظهر البسيطة فهل ترتقب بعده في الإيمان به والإذعان له لأمر آخر حتى يأمرنا صريحاً بقوله : وآمنوا بنزول ابن مريم هلا أنه لايكفي هذا عنده في الحديث بل لابد أن يكون في القرآن وآمنوا بنزول عيسى ابن مريم ، أفليس يكفي قوله ﷺ : « وكيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم » وأي صراحة أبين منها ؟ وأي إخبار أصرح منه ؟ ومع هذا تواتر معناه ، في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل .

ولو كان الأمر كما زعم فأين الصلوات الخمس صراحة ؟ وأين مقادير الزكاة ؟ وأين مسائل كفارة الصيام ؟ ثم وثم إلى ما يشكل استقصاءه : أفليس اعتقاد فرضيتها من الأمور التي عليها مدار النجاة ؟ أوليس يكفر من أنكر فرضيتها ؟ قال شيخنا إمام العصر ـ رحمه الله ـ في رسالته "إكفار الملحدين في ضروريات الدين" : وإذا علمت هذا فنقول : الصلاة فريضة ، واعتقاد فرضيتها فرض ، وتحصيل علمها فرض ، وجحدها كفر ، وكذا جهلها كفر ، والسواك سنة ، واعتقاد سنيته فرض ، وتحصيل علمه سنة ، وجحودها كفر ، وجهله حرمان ، وتركه عتاب أو عقاب اه .

وإنما أطنبت وأسهبت في غير ما كنت أحاوله من أول الأمر إعلاناً بما بدا لي من الكدر في تفسيره والتدليس البين ، ولم يكن عندي من الدين لو كنت

أغمض وأضرب عنـه صفحاً ، فإن سموم الإلحاد قد هبت فى الهند وعمت أرجاءها الناصية ، وأصبح اليوم مناط فهم القرآن المجيد على أمثال هذه التفاسير لتعبيراته الرائقة العصرية ؛ فقلما سلم منه أحد إلا رجل أعطاه الله علماً صحيحاً ؛ أو تزكى نفسه بأنفاس الذين لصحبتهم تأثير عظيم فى إصلاح النفوس ، فثلج صدره بما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يحكم فيه رأيه الضئيل الواهى؛ وقد شرع أحد من علماء الفنجاب من أهل الحـديث (١) فى تأليف تفسير فى الرد على " ترجمان القرآن " وطبع منه جزء لم أوفق بعد لمطالعته ، وأظن أنه أشبع فى الرد عليه ، ويا ليت لوكان أبو الكلام ذا علم صحيح مولعاً بالدين الذى جاء بـه محمد ﷺ يكاد يعد من أعاظم رجال الدورة الحاضرة الذين يتباهى بهم العصر ، ولكان له فى القلوب مكانة ، غير أن محبـة الدين أعلق بقلب المؤمن من محبة أبى الكلام ؛ فلابد أن تصان الشريعة من الوسخ الذى يحط من قدرها عند أولى البصائر النافذة وأصحاب العقول السليمة ، وفق الله الأمة كلها إلى الصواب وهداهم إلى سوى الصراط .

عنايت الله المشرقى وتفسيره "التذكرة"

ومن تفاسير أهل الباطل تفسير لعنايت الله المشرقى الأمرتسرى سماه "التذكرة" ، وحال الرجل أشهر من نار على علم ، وهو على طريقة السيد أحمد خان الذى ذكر حاله فى هدم أصول الإسلام ، واتفق رأيه مع رأيه حذو القذة بالقذة فى أكثر أصوله سواءً بسواء ، ولما ألف تذكرته هـذه وطبعها ورآها علماء الحق أكفروه بالإجماع لم يتخلف عنهم أحد من أهل الحق ، وهذا الملحد زاد نغمـةً فى الطنبور فقال : إن الإسلام والصراط المستقيم الانتفاع بنعم الله تعالى فى الدنيا ؛ فكل من انتفع بها فهو مسلم ، ومن حرم منها فهو كافر ،

---

(١) وهو العالم الفاضل إبراهيم السيالكوتى . منه

وقال فى تفسير أصحاب الجنة وأصحاب النعيم : الذين يسمون أنفسهم اليهود والنصارى ، وقال فى تفسير أصحاب النار وأصحاب الجحيم : الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين ، واستدل بقوله تعالى : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون » أن أهل الحكومة من النصارى هم الصالحون ؛ فإنهم ورثوا الأرض وولوا حكومتها .

وهذا الملحد ليس عنده صراط ولا حساب ولا كتاب ، وليس عنده نشور ولا جنة ولا نار ، يستهزأ بالجنة وبحورها وقصورها ، والمراد عنده بالذين أنعم الله عليهم أهل السلطنة والحكومة ،وهم المراد عنده فى قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم » وكل قوم ليس لهم حكومة ودولة فهم عنده هم الضالون ، وهم الذين غضب الله عليهم ، حتى قال هذا الملحد : إن النصارى مع قولهم بالتثليث هم المسلمون ، وليس الكفر عنده والإسلام بالعقيدة والقول بل بالعمل فقط ، وليس بناء الإسلام عنده على الدعائم الخمس المذكورة فى قوله عليه الصلاة والسلام : « بنى الإسلام على خمس » بل سولت له نفسه وشيطانه ، فاخترع عشرة أمور غيرها ، وليس الصلوات وأعمال الدين وشعائر الشرع مما يكون عليه المدار عنده ، نعم ربما يلبس فى كلماته بذكر الجنة والنار ، وهو تلبيس وتدليس لم يؤمن بها قلبه حيث يذعن بما يخالفه ، وغير ذلك من الهذيانات الشنيعة ، وبالجملة : وجوه كفر الرجل أكثر من أن تستقصى فى هذا الموضع ، وأسس لجنة باسم " خاكساران " ودعا الناس إلى مساعدتها والشركة فيها ، وأسسها على مكائد خفية ليس هذا موضع بيانها ، والله الهادى إلى الحق .

تذييل للتنبيه على عدة تفاسير

قد ظهرت عدة تفاسير فى هذه الأعوام الأربعين بعد طبع مقدمتى " يتيمة البيان " أريد أنها ألفت حديثاً لا أريد طبع كتب ممن سلف وألف

قديماً كـ " تفسير القرطبى " أو " تفسير القاسمى " بدمشق وغيرهما ، فليس الغرض التبصرة على مثلها . وإنما الهدف النقد والتبصرة على تفاسير أهل العصر؛ فمنها : ما هو لأرباب العلم والدين والتقوى ، ومنها : ما هو لمن له إلمام بالعلم ، وليس له رسوخ فيما يحتاج إليه المفسر ، أو هو لأهل الهوى : فيكون فى الصنفين الأخيرين مؤاخذات وتنبيهات ومناقشات ، وربما تكون هناك أبحاث خرجت من الجادة القويمة والصراط السوى ، وأنا آسف على أنه أريد طبع " اليتيمة " وإعادتها بحذف وإثبات ، وصحتى لاتتحمل بسط القول وإيضاح البيان . فاضطررت إلى الاقتناع بإشارات، وربما تكفى العاقل، والله الهادى إلى الصواب .

الأول : " معارف القرآن " للأستاذ الكبير المفتى الأكبر مولانا الشيخ محمد شفيع الديوبندى - طالت حياته المباركة فى عافية - فى ثمانى مجلدات مأخذه " بيان القرآن " لحكيم الأمة الشيخ التهانوى ، فلخصه فى عبارات واضحة ، وزاد عليها مسائل وأبحاثاً يحتاج إليها العصر الحاضر ، ولسنا نحتاج إلى الثناء على الكتاب . فأصبح خير تفسير يستفيد منه عالم وغير عالم .

والثانى : " معارف القرآن " للأستاذ الكبير العلامــة المحدث مولانا الشيخ محمد إدريس الكاندلوى - رحمــه الله - وصل إلى آخر الفاطر، وتمّ منه الطبع إلى الحجر . فتفسير جليل تجد فيه نقولاً جيدةً نفيسةً . كلاهما باللغة الأردية الهندوستانية الرائجة فى هذه البلاد .

والثالث : تفسير للأستاذ عبد الماجد الدريا بادى بالأردية ترجمة للقرآن وعليها فوائد ينتقط فيها من تفاسير باللغة العربية عباراتها وألفاظها ، وربما يجمعها فى صعيد واحد بكثرة ، وفيها من أبحاث تتعلق بالعلوم الجــديدة والاكتشافات الحديثة من أسفار ألفت باللغـــة الإنجليزية ، وأبحاث تاريخية

جيدة ، وأسلوبه أسلوب الأناجيل والعهد العتيق والكمارى والتلمود ، غير أن المؤلف ليس لـه رسوخ فى علوم الدين ولا إلمام بالعلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة إلا قليلا، ولا تصلب فى المعتقد ، فلا يطمئن به كل الاطمينان، ويحتاج إلى أن يقوم عالم من علماء أهل الـدين بمطالعته مطالعةً حرفيةً من البداية إلى النهاية ويبدى رأيه فيه حتى ينبلج الصبح للناظرين .

والرابع : تفهيم القرآن للأستاذ المـودودى ، لاشك أن مؤلفه صحافى قدير باللغة الأردوية وله ملكة الصحافة الموهوبة ، ولـه أسلوب بديع فى الإنشاء ، وقلم سيال فى تحليل أجزاء الموضوع يستجاب أنظار العامة ويستلفت أفكار الجيل الجديد ، وربما يأتى بتفكير جديد فى الأبحاث ، بيد أنه بالأسف الشديد مؤلفه ليس له رسوخ فى علوم الدين ولا قدم راسخ فى علوم البلاغة وعلوم العربية ، فقيد الذوق بالحوار العربى البليغ ، دائماً يبنى على أنقاض غيره ، ولكن لما يريد تعبيره بأسلوبه يخرج عن الجادة ويتجاوز الصواب ، وإعجابه بالرأى ربما يلعب بقلمه ما يكونُ وصمة عار وجهل أبد الآبدين ، وتظاهره بالتحقيق فى كل شئ مع كونـه مسكيناً فى كل فن غير قدرة الإنشاء والتحرير بالأردية وازدراؤه بكل من سلف أصبح شيناً لكتبه وكتاباته ، فتفسيره فيه مؤاخذات وانتقادات وملاحظات ومناقشات ، وهذه الرسالـة لاتتسع ساحتها للبحث وتقديم الأمثلـة ، ولكن نقتنع بعدة أمثلة كبرض من عدٍّ .

منها : ما يقول فى آيات غزوة أحد فى آل عمران (١ - ٢٨٨) الطبعة الخامسة : إن كل بيئة وجد فيها الربا تحدث فيها أدواء خلقية من الحرص والطمع والبخل وإيثار النفس والبغض والحسد والتنافر والغضب ؛ فالـذين يعطون أموالهم بالربا يحدث فيهم الحرص والطمع والبخل ، والذين يأخذون

الأموال بالربا يورث فيهم الحسد والبغضاء والتشاحن ، فهم صنفان ، فكان من جملة الأسباب المؤثرة فى هزيمة المسلمين وجود هذه الأدواء فيهم .

انظر هل أشار القرآن الكريم إلى شىء من هذه الأدواء بأنها أثرت فى هزيمتهم والله سبحانه يقول : « ولقد صدقكم الله وعده حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم بعد ما أراكم ما تحبون » ويقول عزوجل : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » الآية ؛ فأين هذا من ذاك ؟ هب أن الشباب عصوا أميرهم وتأولوا فى كلامه وآثروا أن يساهموا فى الغنيمة ؛ فهل هذا كان من حرصهم وشحهم وحسدهم وبغضهم ؟ وهب أن الربا لم تنزل حرمته بعد ولكن بعد قبولهم الإيمان بإخلاص تؤثر فى طبائعهم هذه الرزائل الذميمة ؟ دعنى من هذا فهل الله سبحانه أشار إلى مثله ؟ وهل معنى « بعد ما كسبوا » هذا الذى يقوله الأستاذ المودودى ؟ كأن الأستاذ ينتظر فرصة تسنح فى حق الصحابة الأبرياء فينتقم منهم وينزل عليهم باللعن والويلات ، ويترقب بالمرصاد للطعن فيهم ، هداه الله عن زيغه المبين ، ورضى عن الصحابة أجمعين .

ومن العجيب المدهش أنه لما قرأ " ظلال القرآن " للسيد قطب وقرأ فيه عدة صفحات فى صدد تفسير آيات غزوة أحد وما عقبها من آيات التنزيل الكثيرة من آية ١٢١ إلى آية ١٨٩ أريد أنه فسر ٥٩ آية من التنزيل فى صعيد واحد ، يبدى لطائفها وحقائقها ، وتناسقها وارتباطها ، واتصال بعضها ببعض ، ولما جاءت آية : « ولا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » فى أثناء آيات غزوة أحد بعد آيات ثم جاءت فى تفسيرها الكلمات الآتية : ولعل مما يلفت النظر فى التعقيب القرآنى على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدها . . . وبين التوجيهات الأخرى المتعلقة بتصفية النفوس

. . . وتحريرها من ربقة الشهوات ، وثقلة المطامع وظلام الأحقاد . . . وضعف الحرص والشح والرغبات الدفينة .

وقال في ضمن تفصيل طويل : وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقدم عليها حياة الجماعة المسلمة وفق منهج الله القويم ، المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها لا في نظام الحكم وحده ، وعلى النظام التعاوني لا النظام الربوي ، والتعاون والربا لايجتمعان في نظام اهـ ؛ إلى أن قال : ومن ثم عرج على الربا فنهى عنه ، وعرج على الإنفاق في السراء والضراء ، وعرج على طاعة الله ورسوله فجعلها مناط الرحمة ، إلى أن قال : والمجتمع التعاوني أقرب إلى النصر من المجتمع الربوي . وكظم الغيظ والعفو من عدة النصر إلخ .

فانظر يارعاك الله أين هذا الكلام البليغ من ذاك الكلام السمج الثقيل على الأذهان قبل الآذان ؟ فالأستاذ المودودي لم يصل إلى مغزى كلام القطب ، وذهب وهله إلى ما قال ، وتحدث بحدسه الخاطئ أن تلك الأدواء الخلقية كانت في الصحابة وأثرت في الهزيمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فقل لي بالله عليك رجل بضاعة علمه ما رأيت ، وفهمه بالقرآن ما دريت ، فهل مثل هذا الرجل يستحق أن يؤلف تفسيراً للقرآن العظيم ، وأنا أدري أن الموضوع غني غاية الغنى ، وقد ألف تفاسير قبله في هذه البلاد باللغة الأردية وفيها مثل أبي الكلام أحد من هو أقدر على الأدب باللغة الأردوية من الأستاذ المودودي وهو متطفل على مأدبته الأدبية وسماه : " ترجمان القرآن " والأستاذ المودودي يستفيد منها ويكتب ما يكتب على ضوئها ، بيد أنه يحاول أن يسبقهم إبداعاً وإنشاء ، ويعجب أن ينفرد بتحقيق لم يسبق إليه حتى يكون سباق غايات ، وفعلا انخدع به رجال ، ثم لايكون فيه كفاءة لهذا

السبق ، فيقع فى أعمق هوة من الجهل أو الضلال ، وربما يقلده فى ضلال وخطأ ، فيضل التابع والمتبوع .

ومنها : قوله فى تفسير السماوات (١ - ٦١) الطبع الخامس فى سورة البقرة ما ترجمة لفظه : إن حقيقة السماوات السبع وتعينها أمر مشكل ، حيث إن الإنسان قد اختلف آراؤه فى كل دور فى السماء ، أو بلفظ آخر : بشئ فوقه ما وراء الأرض . فهو بمشاهدته وقياسه يتصور أموراً لاتزال تتغير دائماً مستمراً ، فلا يلائم أن يرتكز فكر المرأ على واحد من تلك التصورات ويجعلها محطاً لفهم القرآن ، بل يكفى بالإجمال أن يقال : إن ما وراء هذه الأرض من الكائنات قد قسمها الله سبحانه فى سبع طبقات محكمة، أو يقال : إن هذه البسيطة الواقعة فى إطار تلك الكائنات قسم الله تلك الكائنات إلى سبع طبقات اه .

قوله هذا يدل على أنه لا يؤمن فى السماوات السبع بما نص الله سبحانه فى التنزيل العزيز من بيان صفاتها وأبوابها ، دع آراء الإنسان والأفكار البشرية واختلافها ما ذا الذى أثبته القرآن الكريم فى نصوصها الصريحة الواضحة أليس يقول الله سبحانه : « فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها » فى سورة فصلت ؟ وما الذى أثبته نصوص الأحاديث المتواترة وخصوصاً أحاديث المعراج المقطوعة من بيان كيفيتها ووجود الملائكة فيها وما إلى ذلك فى شئون إلهية ونظام سماوى بديع ، دعنا عن فلسفه الإغريق وعن فلسفة أوربا . ودعنا عن العلوم الطبيعية وعدم وصول أنظارها إليها وحتى ما وصل إدراكهم إلى تلك النجوم الثاقبة المعلقة فى جو السماء على الرغم من الوصول إلى كرة القمر ، وإنزال الطائرات على كرة المريخ ، تحيروا واندهشوا فى سعة هذه الكائنات الجوية ، ومنها : ما لا تصل أنوارها إلى

بسوط الأرض فى ملايين من السنين ، وكل هذه المصابيح المبصرة وغير المبصرة تحت السماء الدنيا .

فانظر يارعاك الله ارتفاع القبة الخضراء كيف رفع سمكها، فانظر إلى قول الله عزوجل : « أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها » (النازعات) وقال عزوجل : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت » (الغاشية) ولعدم وصول العقول والإدراكات إليها زعموا أن كل ذلك منتهى مرأى العيون ومنظر رائع فى المرائى ما لها حقيقة ؛ ولاريب أنهم كذبوا وخابوا وخسروا ، والقرآن العظيم صرح بوجودها وصفاتها وبينت أقوال سيدنا الرسول عليه صلوات الله وسلامه المقطوعة المتواترة تفاصيلها وشئونها ، وإنها مساكن الملائكة الربانية ، وفوقها عرش الرحمان جل جلاله وتعالى الله عن مستقرمادى يحتاج إليه ومقر يأوى إليه ، وهو الصمد لم يزل ولا يزال ، وهو الخالق المتعال .

وبالجملة : السماوات مخلوقة موجودة ، والآيات البينات مقطوعة ، والإنكار عنها تكذيب للتنزيل العزيز ، وتكذيب للرسول عليه صلوات الله وسلامه ، والإيمان بصدق القرآن وصدق الله وصدق الرسول من ضروريات الدين ، والتأويل فى مثلها يرادف الإنكار ، فما يقوله الأستاذ فى "التفهيم" يوهم الإنكار عن وجودها وعدم الاطمينان بما أثبته القرآن والحديث ، وما أجمع عليه الأديان السماوية الإلهية ؛ فكان حق تفسيرها أن يقول : والأفكار من الفلاسفة وإن عجزت عن إدراك حقائقها فالقرآن والحديث والشريعة كل يصرح بوجودها وحقيقتها ؛ فالاقتناع بقول : إن تعينها أمرمشكل وآراء الرجال مختلفة ، أية حاجة لمثل هذا الكلام السقيم ، وأية منزلة لآراء الرجال أمام صرائح التنزيل وقواطع الحديث الجليل ؛ فليزن الناظر المنصف هذا التفهيم الخاطئ أمام هذا المقطوع الواضح .

ثم إنـــه لما قرأ في " ظلال القرآن " (١ - ٦٢) من الطبعـة الخامسة : ولا مجال للخوض في معنى الاستواء ، إلا أنه أمر من السيطرة والقصد بإرادة الخلق والتكوين ، كذلك لامجال للخوض في معنى السماوات السبع المقصودة هنا وتحديد أشكالها وأبعادها اكتفاءً بالقصد الكلي من هذا النص ، وهو التسوية للكون أرضه وسمائه في معرض استنكار كفر الناس بالخالق المهيمن المسيطر على الكون إلخ ، وهـــذا الكلام في مثل هذا المحل وإن كان قاصراً بيد أنه كلام لاغبار عليه غير التقصير ، فالأستاذ صاحب " تفهيم القرآن " كأنه لم يدرك مرماه ، وأراد أن يسبقه في المقال ، وقال مـــا قال وقارب الضلال ، فارجع البصر كرتين تجد الفرق البين بين القولين ، وقارن بين الكلامين . وبالجملة : كلامه هنا يدل على أنه لم يطمئن بما في القرآن قلبه ، ولا ثلج بما في الحديث صدره . فرحم الله من أنصف ولم يتعسف ، وأكثر القارئين بشخصية الرجل لا تصل أفهامهم إلى هـــذه الحقائق وإلى تلك العواقب الوخيمة التي تتسرب في خفاء فضلاً عن الجيل الجديد المغرمين بالتعبيرات الطلقة ، مع أنها لاتتجاوز عن أن يكون بقيقة في زقزقة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ومنها : قوله في سورة البقرة في قوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » . . . . فيقول : إن كيفية الرفع المفصلة مشكلـــة بل يعلم بالإجمال : أن عند أخذ الميثاق في سفح الجبل أنشئت صورة هائلة علموا منها أنه يكاد يسقط عليهم الجبل إلخ ، هـــذا ذوق معتزلي كأنـه ينكر الرفع الحسي الحقيقي ، وعنده صورة هائلة هناك مع أن الله سبحانه صرح في الأعراف بقوله : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » الآية ، وبعد هذا النص الصريح وقوع لفظ : « نتقنا » كيف يمكن هذا التأويل الاعتزالي .

ويقول الإمام الراغب الأصفهاني في " مفرداته " : نتق الشيء جذبه ونزعه حتى يسترخي . . . قال تعالى : « وإذ نتقنا الجبل » إلخ ، وهنا أيضاً

لم يدرك مغزى قول صاحب " الظلال " فى تفسيره (٩ - ٩٩) : إنه ميثاق لاينسى فقد أخذ فى ظرف لاينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة . . . . . . فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة أن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ، ولقد أروا فى ظل تلك الخارقة القويـــة إلخ ، وكلام صاحب " الظلال " فى الظلة ليس يخرجها عن معناها المتعارف ويسميها خارقة هائلة ؛ فحرفها المودودى وترجم الخارقة الهائلة بالصورة الهائلة استبعاداً لرفع الجبل كما سبقه إلى ذلك التحريف الأستاذ أبو الكلام آزاد فى " تفسيره ".

ومنها : قوله فى تفسير قوله تعالى : « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً » الآية (١ - ٥٥٦) من " التفهيم " من الطبعة الخامسة ما لفظه مترجماً إلى العربية : بين فى هذه الآيات حال سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وما وصل إليه بتدبره قبل تشرفه بمنصب النبوة ؛ فقد اتضح أن من كان سليم الفطرة وفتح عينيه فى بيئة وثنية وكان غير ممكن أن يتلقى التوحيد ؛ فهو أخذ يفكر فى هـــذه الكائنات وآثارها ويصل مستدلاً بها إلى الحق ، ثم يقول ما ملخصه : إن هذه المنازل والمراحل من الحيرة والتردد جاءت فى البين وسط مراحل السفر ؛ فلا عبرة للمسافر فى الإقامة فى هذه المنازل ، حيث إن محطّ الرحل بعده هو الوصول إلى التوحيد ؛ فالعبرة للنهاية لا للبداية ، والعبرة لما حصل عليه القرار لا ما جاء فى الوسط من غير انتهاء السير ، إلى آخر ما قال .

وفيه مؤاخذات وأخطاء فى هذا التعبير والتحرير :

أما أولاً : فإن كل نبى أو رسول مفطور ومخلوق على عقيدة التوحيد الراسخ فى قلبه ويكون مطمئناً بها ، وغير ممكن أن تمضى عليه لحة فى حياته من غير إيمان بالوحدانية ، ولايمكن التردد أو الحيرة للنبى فى التوحيد ؛ و« كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانـــه أو ينصرانه أو يمجسانه »

فإذا كان هذا حال عامة من يولد فما ظنك بمن يولد ليكون نبياً ورسولاً ؛ فالإيمان بالله وحده من حاق فطرته ولا يحتاج فيه إلى استدلال بل يهتدى إليه بفطرته التى خلقه الله عليها قبل كل استدلال وتفكير ، وهـذا هوالحق عند أرباب الحق، نعم يمكن أن يرتقى بالاستدلال والتفكير والخوض فى ملاحظات الكائنات والنظـام البديع السارى فى الكون من اليقين إلى عين اليقين ، ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، كما يوضحه سؤال سيدنا إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه عن الله سبحانه وتعالى : « رب أرنى كيف تحيي الموتى » .

وأما ثانياً : فكلام الأستاذ المودودى صريح فى أنه مر سيدنا إبراهيم من مراحل الحيرة والتردد فى التوحيد حتى وصل بعد الاستدلال ، واهتدى إلى الحق بعد طى هذه المنازل التى لابد منها للسائر فى سيره وللمسافر فى سفره، ومثل هـذا الرأى خطأ وضلال فى حق الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وأنا أدرى أن الأستاذ المودودى اقتدى بالقطب فى " ظلالـه " ولكنه لم يهتد لحق مقالـه ، وإن كان وقع نحو قصور فى تعبير صاحب " الظلال " أيضاً ، وعصمة الأنبياء من الشرك والكفر كلمة اتفاق وإجماع فى الأمة المحمديـة قبل النبوة وقبل البلوغ ؛ فليس من الممكن أن يتردد فى التوحيد ، أويبقى فى الحيرة ، أويستفهم أحداً ، أويستدل لـه بشيئ ؛ فلا يمكن فى حياته لمحة من الوثنية والشرك وإن كان عارضاً غير مستقر وفى البين وفى وسط السير .

وأما ثالثاً : فكلام سيدنا إبراهيم عليه السلام كان من قبيل المجاراة مع الخصم تبكيتاً لأهل الشرك ، وإقامةً للحجة على المنكرين ، وتنبيهاً لطيفاً على ضلالهم ، وإنقاذاً لهم من مزالقهم، وهو طريق أهل البلاغة والدعوة بالحكمة، لا أنه كان نفسه فى الحيرة والشك وعدم الاهتداء إلى الحق حتى يقال : لا بد

للسائر من المرور من هذه المراحل حتى ينتهي إلى المنزل . وبالجملة : فهذه نماذج من المؤخذات ، وربما يشتد النقد في بعضها حيث خروجها عن الجادة القويمة المستقيمة ، وإنما الغرض هنا ومضات خفيفة من الصواعق ، والله ولي التوفيق إلى الهداية .

ومن معايب كتبه وكتاباته أنه ربما ينبه أحد من العلماء على أنـه زلّ قلمه وقدمه في كذا ولذا فيتنبه أنه أخطأ ويحاول أن يصلحه فيغير تعبيره كأنه رجع عنه ، أو يغيره كأنه يأوله ، ويأتي في الطبعات اللاحقة بتغير أو تعديل أو إصلاح ولكن لايعلن برجوعه وبتغييره . فالطبعات السابقة التي وصلت بأيدي الناس يقرءونه كما هو من غير أن ينتبهوا للإصلاح والتغيير فيبقون في ضلالهم ، ويا ليت لو أعلن وأبدى خطأه لجالت منزلته في عيون الناس ، ولعفا الله عنه عما سلف ، ولكن بالأسف الشديد إنه لا يبدي ولا يعلن كأنه لم يخطئ .

ومن أمثلته : أنه في حق سيدنا يونس عليه صلوات الله وسلامه ذكر أنـه وقع منه تقصير في القيام بفريضة النبوة حيث لم ينتظر حكم الله فأبق ، وكان كلاماً غير مستساغ فنبه القوم على الخطأ في القول : فإن النبي إذا قصر في أداء منصب النبوة فكأنه لم يكن أهلاً للتشرف بهذا المنصب العظيم ، ومن نتيجة ذلك أن الله تعالى كان مقصراً في هذا الاصطفاء والاجتباء : فكان علم الله غير محيط وغير صحيح : فبعد ما نبهه القوم غير تعبيره ولم يعلن : فبقي في الطبعة الأولى . وكذلك في رفع سيدنا عيسى عليه صلوات الله وسلامه إلى السماء حياً بجسده الشريف غير عبارته هكذا وهكذا له أمثلة ، الله يهدينا وإياه .

والخامس : تفسير " تدبر قرآن " باللغـة الأردويـة للشيخ أمين أحسن الإصلاحي ، والمؤلف معروف بتآليفه وكان من أعز رفقاء الشيخ المودودي

وممن كان ينتصر له انتصاراً وفارقه بعد برهة طويلة من رفاقته نحو عشرين عاماً وأمارته في الجماعة ، وكان سبب اعتزاله عنه الخلاف معه في مسألة تبديل الأحكام الشرعية حول المصلحة والحكمة العملية ، حيث إن الأستاذ المودودي صرح واعتقد بأن مقاصد الإسلام الأساسية صنفان : صنف لا يدخله التغير والتعديل مثل العقائد كالتوحيد والرسالة ، وصنف يدخله التغير عند اقتضاء المصلحة والحكمة ، قال : وله نظائر في الشريعة أكثر من أن تحصى ، ومنها : أن الرسول عليه صلوات الله وسلامه أعلن بأن الأئمة من قريش ، وترك ما نص القرآن به من المساواة بين أفراد الشعوب في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات) . وقد انتقدت كلامه هذا أشد الانتقاد في رسالتي : " الأستاذ المودودي وشيء من حياته وأفكاره " فليراجع إليها لمزيد البيان .

والأستاذ المودودي كان بدأ بتفسيره : " تفهيم القرآن " فأراد الأستاذ الإصلاحي أن يؤلف تفسيراً حيث يظن أن الأستاذ المودودي ليست فيه كفاءة من ناحية علوم العربية والبلاغة ، والأستاذ الإصلاحي فاق عليه في هذه الخصائص ، فبدأ يؤلف تفسيراً سماه " تدبر القرآن " ووصل فيه في ثلاث مجلدات ضخمة إلى سورة بني إسرائيل ، وكنت أرجو أن يكون تفسيراً سليماً من مؤاخذات وملاحظات ، وبالأسف لما راجعت إليه وتصفحت أوراقه من غير استيفاء للمطالعة صادفت فيه أموراً مخالفة لجمهرة المفسرين وأئمة أهل السنة والجماعة ، فخاب أملي ورجائي ، وكدرت المسرة المرجوة ، وكنت أرجوها صفواً غير مشوب بنغص وكدر .

فخالف الجماهير في تفسير قوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » وفي قوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها » وفي قوله : « وجد عندها رزقاً »

وفى قوله : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » فراجع (١ ـ ١٩٩) و (١ ـ ٢٠٥) و (١ ـ ٦٨٠) و (٢ ـ ١٩٥) فخابت ثقتى به ، ويحتاج إلى استيفاء مطالعته بتنخل وبحث ، ولو يراجع المؤلف بنقد نزيه وبحث هادئ ربما رجع عن أقواله ، والله الهادى إلى الحق .

والسادس : تفسير سيد قطب " فى ظلال القرآن " ولاريب أن المؤلف له براعة فى الأدب ، وملكة موهوبة فى صياغة أسلوب أدبى جديد ، وله مقدرة فائقة فى حسن التصوير ، ولكلامه روعة وجمال ، وموفق إلى حد كثير فى بيان تناسق الآيات وارتباط بعضها ببعض ، وعرض آيات فى صعيد واحد بحسن التناسق وشدة العلاقة بين بعضها ببعض بحيث يحس أن كل آية آخذة بالسابقة والتالية من غير تفكيك وانتشار ، وهذه الميزة لتفسيره لاريب فيها أنه يشكر عليها ويقدر تقديراً عند الباحث النظار ، وأدركت أنه يريد أن يقدم القرآن بروح نقية طاهرة إلى الأمة ، غير أنه رأيت تقصيراً من جهات ، وربما توهم الخروج عن الجادة .

وأنا آسف أنى لم أتمكن أن أوغل فى البحث ، ولم أنتهز فرصة للتنخل ، وإن بحوثه فى كتابه " العدالة الاجتماعية " وخصوصاً فيما قال فى حق سيدنا عثمان : إنه كان سيقة لمروان يسوقه كيف يشاء ، وأنه كان يعزل أصحاب رسول الله ﷺ ويولى أعداء رسول الله ﷺ ، وأن عهده فجوة فى الخلافة ، وما إلى ذلك من طامات فى حق خليفة راشد ذى النورين مثل سيدنا عثمان مع كثرة مناقبه فى كلام الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، وهو الذى جرأ الأستاذ المودودى فى كتابه " خلافة وملوكية " بطاماته ؛ فبحوثه هذه جعلتنى غير مطمئن بأبحاث تفسيره وعدم الثقة بتحقيقاته على الرغم من تهافت الشباب الأدباء العصريين عليه وكونهم مغرمين به ، ولاريب أن تفسير

القرآن والقيام بحقه أمر فى غاية الصعوبة والدقة ، هذا ما أقوله أداءً لوظيفة الدين مع تقديرى لجهوده فى القيام لإقامة نظام صالح بإخلاص وما كانت عاقبته من مقاساة آلام فى ذلك وخيبة وحرمان حتى ضحى بنفسه ؛ فجزاه الله وأحسن إليه بتلك الجهود وتضحية النفس ، والله الموفق .

البحث عن وجوه اعجازه وما وقع به التحدى

وبيان الأعنى فى ذلك

قد خرجت وبعدت عما كنت بصدده ، والآن أعود لما كنت حاولته ، والعود أحمد ، وموضوعى هذا هو أهم من سائر المواضيع المتقدمة بل هو روحها ؛ فليعلم أنى قد أوضحت فيما سلف أن للقرآن المجيد جهات للتفسير شتى ، ومن الرجال من أخذ منها بسهم وفاز فيها بالقدح المعلى حسب الأدوار العصرية ، ولا ريب أن كتاب الله أكبر معجزة فى العالم يبقى إعجازه على تطور الأطوار وتكور الأكوار تحدى به خطباء العصر ومصاقع العرب ، ودعوا إلى مباراته ومجاراته إنسهم وجنهم ؛ فخرست مقاولهم ، وذهبت شقاشقهم ، وأنت تعلم أن العرب كانوا بمكانة من البلاغة بعيدة ؛ فلهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب البليغة المطنبة والموجزة ، والأسجاع الرنانة ، والمنظوم المرصع ، والمنثور الرائق ؛ فعجزوا وخابوا ، وقطعت أطماعهم دون مناضلته ومساجلته ؛ فأذعنوا له عملاً وقولاً واعتقاداً ، وأصبح عجزهم بحيث لا يرتاب فيه ذو إربة ودربة ، وهو كما ينادى المصقع على رؤوس الأشهاد إلى بلاغة نظمه ونسقه ، وبراعة وصفه ورصفه ، كذلك ينادى على أعين الناس الحكيم والفيلسوف إلى قوانين النظام ، ونواميس التهذيب ، وأسرار الرقى ، وروح السياسة ، ودساتير الإدارة ، ودعوة الخلق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقيم

براهين قاطعة في تضاعيفه وطواياه على ما يستحيله الفيلسوف الحكيم أو يستبعده بحيث عسى أن يثلج به صدره وتطمئن به نفسه إن أعطى للعقل حقه من الفكرة الغائرة ، واستمرى من طبيعته من دون زيغ وإلحاد ، وحسد وعناد .

ولا ريب أنه كلما ازداد الدنيا ازدهاراً ورقياً في العلوم والفنون ، تزداد بدائع كتاب الله على صفحات العالم سطوعاً ولمعاناً ، ذوقاً ووجداناً ، برهاناً وإيقاناً ؛ وهكذا لايزال القرآن معجزاً على تعاقب الأعصار والأدوار لايخلق ولايبلى ، وهكذا يبقى إلى آخر المدى ، ومما قلت في قصيدة لي في نعت النبي ﷺ ومديحه :

محمد جاء بالقرآن معجزةً	دامت لنا روضةً مخضرةً أنفا
أحكامه الغر أضحت للأنام (١) هدى	آياته أنجم تهدى الورى طرفا
ألفاظه نسقت در منضدة	دقت لطائفه لاترتجى لطفا
كالنجم إذ لمعت والشمس إذ سطعت	والعين إذ نبعت والصوب إذ وطفا
فاقت حقائقه راقت دقائقه	يهديك نوراً مبيناً للقلوب شفا
فاحت حدائقه ساحت عجائبه	صوب درور كموج البحر ما نشفا
بحر عظيم إذا ما غصته نظراً	يهديك دراً ثميناً غالياً تحفا
فاقت بلاغته أهلى ذرى فلل	حار العقول هنا عن كنهها رهفا

هذا غير أن الأقدم أن يعرف الجهة التي يتبين بها إعجازه ، وقامت حجة بالغة ، ومعجزة ناطقة على أهل القرن الأول أولى ذرابة وسلافة ، وفصاحة وطلاقة ، قال الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني في " إعجاز القرآن "

(١) وفي نسخة للضلال .

(ص - ١٠) طبع السلفيـة : وقـد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن وتكلم فى فوائد من أهل العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانـه ؛ فهو أحق بكثير مما صنفوا فيـه من القول فى الجزء ٠٠٠٠٠ (١) ودقيق الكلام فى الأعراض ، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو ؛ فالحاجة إلى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب ، وقد قصر بعضهم فى هذه المسألة حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هـذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ، ولا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا إلى الغايـة فيما أحدثوا ووضعوا ، ثم رأوا ما صنفوا فى هذا المعنى غير كامل فى بابه ، ولامستوف فى وجهـه ، قد أخل بتهذيب طرقه ، وأهمل ترتيب بيانه اهـ .

وهذا موضوع مستقل أفرد بالتأليف قديماً وحديثاً ، وأول من صنف فيما بلغ إليه علمى أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ صاحب كتاب " البيان والتبيين " و "كتاب الحيوان " وكتاب " البخلاء " وغيرها ، ألف فيه كتابه " نظم القرآن " ، وأبان عن حاله الإمام القاضى أبو بكر فى " إعجاز القرآن " بقولـه : وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قالـه المتكلمون قبلـه ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا الموضوع اهـ . ونحن لانتهم الإمام الباقلانى فى ذلك كما غمض من كلامه الفاضل الأديب الرافعى غير أنا نعذر الجاحظ فإنه أول من صنف فيه ، فله فضيلة التقدم والسبق .

ثم صنف فيه الشيخ أبو عبد الله الواسطى المعتزلى المتوفى ٣٠٦ هـ وسماه " إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفـه " ذكره صاحب " كشف الظنون " وابن

---

(١) ههنا فى المطبوع بياض فى النسخة ويحتمل أن يكون اللفظ الساقط : الذى لا يتجزأ ، أو الجزء الفرد ، ويدل عليه اللفظ الذى يليه . منه

النديم ، ولم نطلع إلى الآن على هذا الكتاب ، غير أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى ٤٧٤ هـ صاحب " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " شرحه بشرحين : كبير سماه " المعتضد " وصغير لم ندر اسمه ، وبهذا يتبين مزيته وكفاه فضلاً .

ثم أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى ٣٨٢ هـ صنف فيه رسالة صغيرة تبلغ إلى نحو ثلاثين صفحة سماها " إعجاز القرآن " طبعت الآن بالهند فى مكتبة الجامعة الملية بدهلى ، وقد طالعتها ، وليس فيها ما يقدر فى هذا العصر المحتفل بكتب القوم فى علوم البلاغة ، وقد أخطأ الرافعى فى اسم المصنف حيث ذكر اسمه أبو عيسى الرمانى ، وليس هو أبو عيسى بل ابن عيسى كما ذكره ابن النديم وابن خلكان وغيرهما .

ثم صنف الشيخ الإمام القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى ٤٠٣ هـ ذلك البحر المتلاطم والمحقق الشهير المتكلم شيخ السنة ولسان الأمة كتابه المعروف " بإعجاز القرآن " ، والفاضل الرافعى مع ثنائه عليه وعلى كتابه ومع انتفاعه عنه غض من قدره شيئاً ، وأنا أقول : إن له منة عظيمة على رقاب الأمة بكتابه هذا ولاسيما على الفاضل الرافعى ، فإن الباقلانى هو الذى أبان طرق الحجة ، وأوضح المحجة للأمة ، وكتابه هذا قد مضى عليه نحو ألف سنة من عهد تأليفه وهو على حاله غض طرى لايستغنى أفاضل هذا العصر الحفيل بالعلوم المدونة والكتب المؤلفة ؛ فما ظنك بالأعصر التى لم تبلغ العلوم المدونة إلى هذا الحد ، ولم يتم تدوين العلوم ولا سيما علوم البلاغة التى كملت قصور حمراء بلاغتها وخضراء فصاحتها بإمام أهل الفن شيخهم عبد القاهر الجرجانى مع أن هذا من العلوم التى ما نضجت فكيف احترقت ، ثم مع ذلك كله حبر كتابه بعبارة تطرب لها الأحلام والأفهام ، وترقص لها الأقدام والأقلام .

وممن صنف فى هذا الموضوع كما حكاه صاحب "الإتقان" وصاحب "كشف الظنون" وغيرهما: الإمام المحدث الشهير احمد بن محمد الخطابى البستى الشافعى المتوفى ٣٨٨ هـ صاحب "معالم السنن". ثم ابن سراقه (١) والرؤيانى ولعله أبو المحاسن الرؤيانى من أكابر علماء الشوافع صاحب "بحر المذهب" و "مناصيص الشافعية" المتوفى ٥٠٦هـ، والإمام الرازى المتوفى ٦٠٦هـ، وابن أبى الأصبع المتوفى ٦٥٤هـ، والشيخ الزملكانى المتوفى ٧٢٧هـ، ولعل هى كتب بعضها من بعض كما قاله الرافعى، وعسى أن يجرى مؤلفاتهم هذه على تفنن أساليب جميلة وبراعة تعبيرات رائقة وإبداء وجوه من الإعجاز مسفرة ذات بهاء وجمال، ولكن الأسف أن الأمة لم تنتفع إلى الآن بكثير من هذه المعادن الثمينة والكنوز الغالية، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، وابن النديم ذكر فى "فهرسته" كتابين ما عدا هذه الكتب: أحدهما: كتاب "نظم القرآن" لابن الاخشيد، والآخر كتاب "نظم القرآن" لأبى على الحسن بن على بن نصر. ورسالة فى إعجاز القرآن للعلامة قاسم بن فيرة الشاطبى الشافعى، ورسالة فى إعجاز القرآن للمطرزى؛ فهذه بضع عشرة كتاباً فى هذا الموضوع ما وصل إليها علمى وإحصائى من كتب القدماء والمتأخرين.

ثم جاء بعد هذه القرون المتطاولة وبعد هؤلاء الأئمة نابغة أدباء مصر وغرة كاتبى العصر الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعى المرحوم كان من أدباء

---

(١) وقد بخس الرافعى حقه بل تجاوز الحد وأسرف حيث قال فى حق كتابه: علا أن كتابه لو كان مما ينفع الناس لمكث فى الأرض اهـ. أقول: وكيف يحط من قدر كتاب فيه ما لفظه: اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن فذكروا فى ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا فى وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره كما حكاه السيوطى فى "الإتقان" والرافعى نفسه فى كتابه. منه

القرن الحاضر ؛ فألف كتابه " إعجاز القرآن " على أسلوب عصرى بارع ، ففصل بعض ما أجملوه ، وصدع بما أشاروا إليه، وكشف عن بعض الارتقاءات العصرية وإعجاز القرآن فيها ، وأثار طرفاً من أطراف ما عسى أن يكون فى كلمات القوم إليه إيماض ، بيد أنه كما قال هو نفسه فى الباقلانى رحمه الله : كان واسع الحولة فى العبارة ، مبسوط اللسان إلى مدىً بعيد ، يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ ومذهب مقلده ابن العميد على بصر وتمكن وحسن تصرف اهـ . رجل جاحظى الأسلوب، يتغلغل فى أعماق التعبير والتحبير، ويرقص قلمه فى بيداء الإنشاء فى هزة وهياب ، وكأنه يحاول أن يعترف ببلاغتـــه قبل أن يعترف ببلاغة القرآن ، ويترسل فى العبارة ما يكاد يختلط فيه الحابل والنابل ، وقد استفاد كثيراً من ابن الأثير فى "المثل السائر" ولم يصرح به ، ومع هـــذا فلا أنكر فضله وما لكتابه وإنشائه منزلة فى القلب عظيمة ، ولكن أود أن لو شمر أحد من أدباء العصر عن ساعد الهمة إلى تلخيصه فى نحو ثلثه والثلث كثير ، إذن يحرى به أن يوضع هو فى نصاب علم البلاغة فيجديهم نفعاً إن شاء الله تعالى .

وما عدا هذه المؤلفات المفردة فى هذا الموضوع رصع أحبار الأمة المحمدية درراً منثورةً وجواهر مبثوثـــة لو نظمت فى تأليف لكان عقداً غالياً لنحر البلاغة ، وغرةً لجبين كتب الأدب والعلم . فمنها : ما ذكره الشيخ الجرجانى فى غضون كتابيه : " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " والأمير اليمانى فى أضعاف كتابه " الطراز " أو ما يصدع به الإمام الرازى فى كتابـه " نهاية الإيجاز " وهو وإن انتقاه من كتابى الشيخ ولكن للتعبير فى الحقيقـة مجاز ، وما بثه الحافظ ابن القيم فى كتبه مثل " بدائع الفوائد " و " مدارج السالكين " و " كتاب الفوائد " وغيرها من بدائع أنواع الإعجاز ، وما بحث عنـه أكثر المتأخرين من المفسرين كصاحب " الكشاف " وهو هادية صوارهم ، ومصباح قمة منارهم ، وكالإمام الرازى ، وابن الأثير الأديب الكاتب فى " المثل السائر "

وأبي سعود في تفسيره " إرشاد العقل السليم " وصاحب " روح المعاني " وغيرهم من جهابذة العلم وحذاق الفن .

وجـــه الاعجاز

ثم ليعلم أنهم ذكروا في وجوه إعجاز القرآن أموراً كثيرة أكثرها صحيحة وإن كان بعضها فوق بعض ، وأبطل الوجوه عندي ما قاله النظام : إن إعجازه بالصرفة يعني أن الله صرف العرب قدرتهم من معارضته وسلب عقولهم وإن كان مقدوراً في نفس الأمر بيد أنه عاقهم هذا العائق الخارجي ، ومن ثم أصبح معجزاً ، وبطلانه لايفتقر إلى تنبيه ؛ فإن مفاسده كثيرة ظاهرة ، ثم إن الإمام القاضي عياض المالكي أرجع تلك الوجوه الصحيحة إلى أربعة أنواع : الأول : حسن تأليفه ، والتئام كلماته ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه ، وبلاغته الخارقة لعادة العرب الذين هم فرسان الكلام ، وتلخيصه يرجع إلى الفصاحة والبلاغة . الثاني : صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب . الثالث : الإخبار بالمغيبات وما لم يكن فوجد كما أخبر . الرابع : الإنباء بالقرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مع كون من أنزل عليه أمياً لايقرأ ولا يكتب ، وهي مما لايعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، انتهى ما قاله ملخصاً ؛ وقد فصل كل وجه من هذه الوجوه الأربعة بما فيه للقلوب شفاء وللعيون جلاء ، وكل ما قاله صحيح ؛ بل الأمر عندي كما قال ابن سراقة : إنهم ما بلغوا إلى معشار وجوه الإعجاز وأقول : ومن إعجازه أن لاتنقضي وجوه إعجازه أبداً ؛ فيبدو منها في كل قرن ما لم يبد في القرون الغابرة :

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدي إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالشمس في كبد السماء وضوءها   يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

بيد أن الذى وقع به التحدى لبلغائهم وخطبائهم ومصاقعهم وشعرائهم إنما هو نظمه البديع بفصاحته وبلاغته ، وغريب أسلوبه وبراعته ؛ فإنهم كانوا أرباب هذا الشأن ، وأصحاب البيان ، يعرفون هذا الأمر ذوقاً ووجداناً معرفةً وإيقاناً ، لم يكن عليهم فيه لبسة ، ولا يدخل عليهمْ فيه شبهة ، ولا يتسرب إليهم وسوسة ، وإليه جنح الجمهور ، قال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، انتهى ملخصاً ؛ فإذا دار الأمر على هذا فالمجال رحب ، والمسافة شاسعه ، والأعنى فى خدمة القرآن المجيد هذه الجهة ، وإحكام هذا العمل إنما يتأتى كما قاله الإمام الباقلانى بعدم التقدم فى أمور شريفة المحل ، عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ ، ولهذا اختص بمعرفته أفذاذ فى الأمة ، بل سار مسير الأمثال ما يقال : لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان ، أريد بهما الشيخ عبد القاهر الجرجانى صاحب "دلائل الإعجاز" والعلامة جار الله محمود الزمخشرى صاحب "الكشاف" وقرن بهذه المقولـــة شيخنا إمام العصر فقال : أحدهما من زمخشر و الآخر من جرجان .

وما هذا إلا من خطر هذا الأمر وبعده عن الوصول إليـه ، وكيف لا وقد حكى الباقلانى فى كتابه عن الأصمعى : فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب ، وعن أبى عمرو بن العلاء : العلماء بالشعر أعزّ من الكبريت الأحمر ، ثم قال الباقلانى : إذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشقُّ تمييزه ، ويصعب نقده ، ويذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافاً كثيراً ، و تتباين آراءهم فى تفضيل ما تفضل منـــه ؛ فكيف لايتحيرون فيما لايحيط به علمهم ، ولايتأتى فى مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرهم إلى آخر ما قال رحمه الله .

ولما كان شيخنا ـ رحمه الله ـ صاحب " مشكلات القرآن " نسيج وحده ، ونظير نفسه فى عصره ؛ نظير من نظراء أفذاذ القرون السالفة ، جمع الله له شمل المزايا التى قلما يجتمع فى أحد ، عرف إعجاز القرآن ، وثلج به صدره ، وربما كان يقول بعد حكاية المقولة السابقة : " لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان " : وأنا ثالثهما ، وكان يقول : إعجاز نظم القرآن عندى أبين من طلوع ذكاء من مشرقها ، ليس فيه للشبهة مدخل ومساغ ، وأما الذكاء فربما يشتبه طلوعها ، ويرى فى الأفق قرصها ويكون هو انعكاس قرصها ، حيث تحقق فى الفلسفة الجديدة أنـــه يتراءى قرص الشمس قبيل شروقها من أفقها الحقيقى بعدة دقائق ، ثم كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يمثل هذا تقريباً للأفهام بقدح فيه درهم مثلاً وضعه بعيداً عنك بحيث لايرى فيه الدرهم ، ثم إذا ملئ ماء يتراءى لك الدرهم فيـــه ؛ فيمكن أن يقع الريب فى قرص الشمس ، بيد أن إعجاز نظم التنزيل العزيز يقين لايقربه شك ، وثلج صدر لايخلطـــه حيرة ولا وهم ، اطمأن بـــه القلب ، وقرت به العين ، فهو أبين عندى من فلق الصديع ، وأوضح من شروق ذكاء .

ولا ريب أن تغلغل الشيخ من علوم البلاغة كان بمكانة شاسعـــة لايدرك شأوه ، ولا يشق غباره ، فكانت البلاغة سيطت بلحمه ودمه ، وكان يقول : قد أودع الله فى قلبى معياراً لمعرفة البلاغة ؛ فلست فيها لأحد مقلداً ، وأعطانى بصيرة أدرك بها مراتبها .

وكثيراً ما رأيته ـ رحمـــه الله ـ يأخذه وجد ونشاط فى تعبير القرآن ، ويطرأ عليه هزة كهزة العصفور حين بلله القطر المطور ؛ فكان ـ رحمه الله ـ يلتذ بحلاوتـــه وعذوبته ، ويسرى حياه فى قلبه وروحه كما يسرى الروح فى البدن ، ويتحير من بهجته ورونقه ومائـــه ، وكان يقول : والأعنى فى

تفسير القرآن هو الصدع بغرضه بما يقتضيه جزالة شأنه الجليل ، ويبقى نظمه المعجز على سذاجة فطرية ، ويستغنى عن تكلفات وتقديرات تنافى بليغ نظمه المعجز البارع ، فإن التكلفات والتقدير فى العبارات تحطه عن درجته القاصية التى ليست وراءها غاية ، ولا يتوخى بعدها نهاية :

رتب تقصر الأمانى حسرى دونها مـا وراءهن وراء

ويؤيده كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ ما قاله الزمخشرى من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه ، والبلاغـة على كمالها ، وما وقع به التحدى سليماً من القادح ، وقال غيره : معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هى عمدة المفسر المطلع على عجائب كلام الله ، وهى قاعدة الفصاحة ، وواسطة عقد البلاغة ، وكان ـ رحمه الله ـ يثنى كثيراً على " نظم الدرر فى تناسب الآى والسور " للشيخ إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى ٨٨٥هـ من أرشد أصحاب شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلانى ، وكان يفضله على سائر التفاسير المتداولة بين الأمـة من هذه الجهة السامية . وكان يقول : هو قد وفى حقه بما أمكن لمجهود البشر ، وكان يتمنى طبعه فى حياته ، وعزم على أخذ عكسه من المكتبـة المصرية ، ولكن حال الأجل دون الأمل ، فتوفى ـ رحمه الله ـ وفى قلبه حسرة وكان كما قيل :

ولم ينفق حتى مضى لسبيله وكم حسرات فى بطون المقابر

وكما قال ذو القروح الملك الضليل :

وما المرأ ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

وقـال ربنا عزوجل : «أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى» وقد حان لى أن أذكر كل ما كان الشيخ يذكره مما سمعته ، أو وصل إليه علمى عنه ما يتعلق بإعجاز القرآن ومزايا نظمه ، وما يلوح إلى خصائصه وآدابه فى

سرد القصص والوقائع ، وما كان يؤمئ إلى لطائفه وأسراره حتى يتبين لك صدق ما قلته، ولتقدر منزلة الشيخ رحمه الله من الخوض في مشكلات القرآن، والغوص في علومه ومعارفه ، ولتعرف مزية الكتاب الذى حاولت تأليف مقدمته، ثم لتقابله بما بين يديك أقوال علماء الأمة في الإعجاز وغير ذلك مما يتعلق بالقرآن لتكون على جلية من الأمر وبصيرة تدرك بها الحكم الصحيح والحق الصريح، وموضوعى هذا أهم ما أسلفته من هذه الجهة ، فإنه دقيق المسلك ، لطيف المغزى ، غامض الكنه ، يحتاج إلى ذوق فى النفس ، ودراية مع التضلع من علوم البلاغة بإمعان نظر ، وفراغة قلب ، وتلطيف الفكرة ، ولكن كان الشيخ ـ رحمه الله ـ بليغاً مولعاً بالإيجاز حتى يزعم كلامه من لم يستأنس بتعبيراته قريباً من الإلغاز ؛ وقد قال على رضى الله عنه : ما رأيت بليغاً قط إلا وله فى القول إيجاز ، وفى المعانى إطالة اهـ ، حكاه ابن الأثير .

وسمعت شيخنا العثمانى صاحب " فتح الملهم شرح صحيح مسلم " أن حكيم الأمة الشيخ محمد أشرف على التهانوى ـ رحمه الله ـ كان يقول : رب جملة واحدة من كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ يحتاج فى شرحها إلى تأليف رسالة اهـ ، والشيخ ـ رحمه الله ـ صنيعه فى ذلك كما قال ابن النديم فى صدر كتاب " الفهرست " : النفوس تشرئبُّ إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات اهـ ، أو كما قال الخليل بن أحمد ـ رحمه الله ـ : من الأبواب ما لوشئنا أن نشرحه حتى يستوى فيه القوى والضعيف لفعلنا ، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا ، حكاه ابن يعيش فى " شرح المفصل " وقال ابن يعيش : إذ من المعلوم أن من كان قادراً على بلاغة الإيجاز كان قادراً على بلاغة الإطناب اهـ ، وبالجملة : لما كان دأب الشيخ إيجاز العبارة دون تمهيد المقدمات وإيضاح القول فى بسط أحاول أن

أسرد أقواله مع شرح ما يفتقر بعضها إلى إيضاح للغرض وبسط في الكلام في استبصار مما ذكره في بعض رسائله ، أو فهمت كلامه بتوفيق الله وعونه .

قوله في وجوه اعجاز التنزيل العزيز

قال رحمه الله : القرآن الكريم كله معجز ، وإعجازه عندي سار في مفرداته ومركباته ، وفي ترتيب كلماته ، وفي مقاصده وحقائقه ؛ فهو معجز لفظاً ، وتركيباً ، وترتيباً ، وأغراضاً ، ومقاصد ، وعلوماً ، وحقائق .

إعجازه بالمفردات

قال : وأما الإعجاز باعتبار مفرداته ، فأريد به أنه إذا كان في الصدع بحقيقة أمر نزاع بين العقلاء وكانت الأطراف متجاذبــة ، وأصبحت العقول حائرة لاتدرك الحقيقة ، ودار الأمر بين هذا وذاك ، لاينفصل فيه الاختلاف ، ولايهتدى إلى سبيل ؛ فالقرآن المجيد يختار في أمثال هذه المواضع المتلاطمة تعبيراً بكلمة مفردة لايمكن أوفى منه بالحقيقــة وأوفى بالمقام وأوفق بالغرض بحيث لو تظاهر الثقلان على أن يوردوا موضعه لفظاً غيره أقرب إلى الحقيقة وأنطق بالغرض لخابوا وندموا ، وما رأوا إلا عجزاً وقصوراً ، فيستحيل أن يوفى الغرض المسوق له بلفظ آخر غيره ؛ فهكذا القرآن يكشف بكلمة حقيقة غامضة لاتصل إليها أفكارهم ، ولا تكاد تفصح عنها بكلمات فكيف بكلمة ولنمثله لك بمثال بتوطئة للغرض قبله .

كانت العرب عامتهم ينكرون البعث بعد الموت ، ويزعمون أن الإنسان إذا مات تفرقت أوصالــه ، وفنيت أجزاء بدنه ، ولم يبق منه شيء ، وقد أفصح التنزيل عن زعمهم هذا في غير موضع ، ومنه قوله تعالى في " الأنعام " :

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما نحن بمبعوثين » وغيرها من الآيات ، وفى " صحيح البخارى " من قول بعضهم :

يخبرنا الرسول بأن سنحيي وكيف حياة أصداء وهام

والصدى عندهم ما كانوا يزعمون أنه إذ قتل رجل يخرج من رأسه طائر ويصيح : أسقونى أسقونى ، حتى يؤخذ بثأره كما فى شروح " الصحيح " ومثله فى " دائرة المعارف " لفريد وجدى من الصدى ، فلم يكن عندهم حساب ولا كتاب ، ولا معاد ولا نشور ، وزعموا أن العالم هكذا يبقى لايخرب ولا يبيد ، كما حكاه الصاعد الأندلسى فى " طبقات الأمم " (ص - ٦٨) والشهرستانى فى " الملل والنحل " وغيرهما ، وعصبة منهم قالوا بالمعاد كما يكشف عنه بعض أشعار شعراء الجاهلية ، ثم القائلون بالبعث أيضاً كانوا مختلفين لم يتبين عندهم أمر تطمئن إليه نفوسهم كما قال عزوجل : « فهم فى أمر مريج » (ق) ، وقال أبو الطيب :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل : تخلص نفس المرأ سالمة وقيل : تشرك جسم المرأ فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وكانت لهم للموت فى الجاهلية أسماء حسب مداركهم ومشاعرهم كما سردها ابن سيدة الأندلسى فى الجزء السادس من " المخصص " (٦ - ١١٥) وهى الهميغ (بالمعجمة ، وقيل : بالمهملة) والنيط ، والزهر ، والمنون ، والشعوب ، والفود ، والحمام ، والسام ، والمقدار ، وقتيم ، وجهاز ، وحلاق ، والقاضية ، والطلاطل والطلاطلة ، والغول ، والذام ، والكفت ، والجداع ، والخزره (بتقديم المعجمة) والحتف ، والخالج ، واستشهد لأكثرها بأشعارهم ، وذكر التوفى فى أسماء الموت ، واستشهد بالتنزيل العزيز ، فعلم أنه لم يكن

عندهم هذا قبل نزول القرآن ، فجاء الإسلام ونزل القرآن ، وأفصح بالمعاد وبالبعث والنشور والحساب والكتاب . ورد عقيدتهم الزائغة من الفناء المحض وعدم بقاء الروح واستبعادهم النشأة الثانية، وتعجبهم من اجتماع الأجزاء البائدة عندهم بعد كونها رفاتاً ورميماً . ونطق بالبقاء بعد ما كان في الظاهر عدماً ، ومثل لهم تمثيلات تقرب إلى الأذهان حقيقة البعث . ويكشف ما فيه من الخفاء والبعد بحيث تطمئن بها قلوبهم ، وتثق بها نفوسهم . فاستعمل لهذه الحقيقة لفظ التوفي بمعنى استيفاء الشئ كاملا وتحصيله سالماً ، من غير أن ينقص منه شئ ؛ فللأرواح عنده مقرها ، ولأجزاء الجسد لديه مستقرها ، فيجمعها إذا شاءها العليم الخبير « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » فكل ذرة من ذراتها لا يعزب عن علمه ، ولا يشتبه عليه منها شئ ؛ فقال عز من قائل : « وعندنا كتاب حفيظ » .

قال الشيخ : وما للأغمار ولمثل ألفاظ القرآن حقيقة ومعرفة ، وحلاوة ووقاراً ، وفخامة وجزالة ومتانة ، وأين أنت من لفظ الشهادة للقتل ، ومن التعبير للموت بقوله : « فمنهم من قضى نحبه » قال الشيخ في ” تحية الإسلام “ . والذي يرى أن استعمال التوفي بمعنى الموت أيضاً شاع في الدورة الإسلامية تبعاً للقرآن ، ولعله لهذا لم يذكر الأزهري في ” تهذيب الألفاظ “ والثعالبي في ” فقه اللغة “ التوفي في أسماء الموت اهـ . قال الراقم : ويؤيد هذا أن صاحب ” المخصص “ ذكر من أسمائه التوفي ولم يستشهد له إلا بالقرآن كما قلته آنفاً ، فلم يكن عندهم حقيقة الموت كما عند الإسلام ، فكيف يعبرون عنها بالتوفي ، فما كانوا يعرفونها بهذا المعنى ولا بهذا اللفظ بل كانوا يعرفون التوفي بأخذ الشئ وافياً أي استيفاءه واستكماله كما قالت أخت طرفة في رثائه .

عددنا له ستاً وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخما
فجعنا به لما رجونا إيابه ... على خير حال لا وليداً ولا قحما

قال الشيخ : وأشار بلفظ التوفى إلى لطيفة أخرى بأن المتوفى يكون حق المتوفى فلا يقال مثلاً لأخذ الفرس من الصحراء : توفيت الفرس ، وإنما يقال : توفيت حقى أى حصلته . ويقال فى معناه بالفارسية : وصول كردم حق خويش را . وإذا كان لتحصيل حقه والحق لايكون عند الغير إلا عارية لمدة مضروبة تضمن إتمام المدة من هذا الوجه أيضاً من حيث استبداده بقبضه متى شاء . كما قال ونعم ما قال :

وإن كشروا خيل الشباب وحاذروا ... من أن ترد فإنهن عوارى

وصاحب الحق يأخذ متى شاء : فهذا أيضاً معتبر فيه ، وكما قال :

وما الروح والجثمان إلا وديعة ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

قال الشيخ : وفى لفظ التوفى إذا كان مسنداً إلى الله تعالى لطيفة أخرى ، وهى أنه أشار به إلى أن المتوفى أصبح ملكاً للباقى ، فلا يبيد ولا يفنى . ولفظ الشيخ فى " تحية الإسلام " (ص - ٣٣) : واعلم أن لفظ التوفى هو قبض الحق إذا كان مسنداً إلى الله تعالى فى مقام اختصاص دل على أن الشئ المتوفى لايفنى بعده لصيرورته ملكاً للباقى ، وهو المراد بقوله تعالى : « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » أى الإماتة والإحياء مرة ثانية لايدوم هكذا بل ينتهى على قوله : « ثم إليه ترجعون » وعلى قوله : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فإذا كان المتوفى هو الروح كان باقياً بعده . فدل هذا اللفظ على بقاء ما توفى . ولما كان البدن فى سائر الناس غير متوفى لحضرته تعالى ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام مما توفى الله بدنه مع روحه ، زاد فى آل عمران بعده : « ورافعك إلى » وخصه به عليه السلام ، ولعل إسناد التوفى

إليه تعالى إما أن يكون فى مقام الاختصاص ، أو فى مقام الإرسال كآية الزمر بخلاف غيرها ؛ فيسند إلى الملائكــة إذن ، ولعل هذا أراده الراغب فى "مفرداته" حيث قال : توفى اختصاص وشرف لاتوفى موت ، انتهى بتصرف وتلخيص .

ثم إنه لما كان فى النوم أيضاً نوع توفى استعمل له القرآن أيضاً التوفى فى قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الآية ، وفى قوله : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » الآية ، قال الشيخ : وإنما صرح بالأنفس فى قولــه تعالى : « الله يتوفى الأنفس » لأن توفى الموت تعلم الناس حقيقتــه من القرآن بخلاف توفى المنام فإنه بديع عندهم ؛ فأعلمهم أن فيه توفياً للنفس ؛ فلم يكن بد من التصريح بها ، ثم لما أعلم بــه مرةً أرسل بعدها فى قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » .

قال الراقم : يريد الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه لما علمهم بأن فى المنام أيضاً توفياً وأورد لفظ الأنفس إعلاماً لهم وتعليماً ، فعلموا الحقيقــة ؛ فتعارف التوفى فيهمْ بمعنى المنام أيضاً ؛ فاستغنى بعده من ذكر الأنفس فى قوله تعالى: « وهو الذى يتوفاكم بالليل » فالشيخ رحمه الله أزاح ما كان يختلج فى الصدر فيما ذكره أولاً من نكتة ذكر الأنفس فى الآية السابقة وتركها فى الآية الأخرى ، فلله دره ما أبهى درره، ثم قال: أعنى أنه صرح بها لإظهار حقيقة هى أن فى المنام والموت توفياً وتحصيلاً وأن له تعالى فيه ذلك الفعلَ ، وقد يجيئ القرآن لإظهار هذه الحقائق مما لايعلمه أهل العرف ، ولعل العرب لايعلمون أن فى الموت توفياً بمعنى التحصيل ، إلى آخر ما قاله رحمه الله .

وقال الشيخ فى مواضع من "التحية" ما ملخصه : واعلم أن أهل الجاهلية لما كانوا يعلمون للموت أنه فناء محض وانعدام محض ، وهداهم القرآن أن الأمر

ليس كذلك، وأن فى الموت توفياً وإن لم يكن التوفى هو الموت بعينه ؛ فإطلاق التوفى فى محل الموت ، ولا أقول : على الموت إنما تعلمه العرب عن القرآن ، وهو الذى هداهم إلى هذه الحقيقة وعلمها ، فحقيقـــة الأمر أن التوفى فى كل مقام هو الأخذ ، ويصدق فى الموت والنوم والرفع أن فيها توفياً ؛ فهذه حقيقة الأمر وفقه اللغـة ، ومنصب القرآن بيان الحقائق . ومن رزقـه الله تعالى ذوقاً فى القرآن وحظاً فى العربية يعلم أنه ليس يجرى على الحوار العامى ، بل له طريقة متميزة فى انتقاء الألفاظ ، والحظ فيها إلى أصل وضعها ، ورعايـة حقائق ما وضع لها ، ومن أجل ذلك يتعذر بل يستحيل وضع لفظ فيه بدل لفظ ؛ وذلك للجهل بحقائق الأشياء وبالذى يفى بحق المقام ؛ فـهكذا يعين القرآن محط الفائدة بتعبير مفرد تتقاصر عنه الأفهام وتعجز عنه مدارك الأعلام .

ثم إن الشيخ ـ رحمه الله ـ أتى ببدائع وغرائب من أسرار البلاغة ولطائف نظم التنزيل فى آية التوفى ، أعنى قوله تعالى : « يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى » الآية ، فى كتابه "عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام" وتعليقاته " تحية الإسلام " ما يدهش الفحول ، ويحير العقول ، وتلاطم بحره المواج ، فقذف بدرر غالية القدر ، ثمينة الذخر ما حرى بها أن تكون واسطة عقد الفصاحة ، وقاعدة البلاغة والبراعة ، وبسط فيها الكلام ، وأحاط بسائر ما يتعلق بالمقام ، ما يتبين به ما للشيخ منزلة قاصية فى علوم البلاغـة تتقاصر عنه الخطى ، وتحار فيها القطا ، ولو جمع جميع ما بثـه فى كتابيـه وجميع ما أحال عليه بالمراجعة إلى الكتب فى هذه الآية خاصة" ، ويلتقط تلك الدرر المبثوثة فيها ، ثم يرتب ترتيباً أنيقاً على أسلوب عصرى لصار سفراً كبيراً ، ولا ريب ولـكان أهل ذخيرة وأعلاها فى كتب التفاسير وكتب البلاغـة والبيان ، وحقق هنا الشيخ هل هذا التوفى بمعنى الموت كناية بيانية أو أصولية ؟ وهل الكناية حقيقة لغوية أو مجاز لغوى ؟ وما ذا أقوال أئمة البلاغـــة فى ذلك ؟ وما الحق فيها ؟ وغير

ذلك من لطائف البلاغة ما يقدر قدرها البليغ المعانى ، ذو الذوق العظيم فى المعانى ، وصاحب الحظ من فصاحة المبانى ، وعقد فصلاً مستقلاً فى ذلك فى كتابه " عقيدة الإسلام " ولفظه : فصل فى تفسير لفظ التوفى وشرحه لغةً وعرفاً ، وبيانه حقيقةً وكنايةً ، وتوفية حقه واستيفاء مستحقه اهـ .

والذى دعا الشيخ إلى كشف هذه اللفظة أولاً : هو الرد على اللعين القاديانى المتنبئ الكاذب ، وعلى أتباعه الملاحدة الذين قالوا بأن عيسى عليه السلام قد صلب ومات ، واستدلوا على ذلك بالقرآن ، فحرفوا القرآن ومسخوا ، وحقفوا غرضه ونسخوا ، كما قال الشيخ رحمه الله : وهذا اللفظ هو الذى شغب به ذلك الجاهل الشقى وأتباعـــه ، ولهم فيه جعجعة ولا طحين ، وسودوا به الأوراق، وأصروا وكرروا ، فلا ترى كتابةً لذلك الجاهل إلا وله جرة بحيث يسأم الناظر فيها ويلعن قلبه ساطرها ، وهذه هى بضاعته المزجاة وقد ردت عليه فخسئ ولم يعد قدره ، وكان كما قيل :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

فباراه الشيخ - رحمه الله - وكافحه ، ورد عليه أبلغ رد ، وصدع بالحق بحيث لم يبق مجالاً ، وتركه على مشفر الأسد ، وأثبت كأن القرآن نزل لرده ولوضع جمر الغضا فى جوانحه ، وسد عليه الأبواب من كل جانب ، فأصبح مدحوراً وله عذاب واصب . وليس هذا موضع إيفاء القول وإنهاء البيان فيه ، فلنقتصر على هذا القدر النزر ، وربما يخطر بالبال أن لو وفقنى الله لذلك لقمت بأعبائه ، وبإخراج هذه النفائس الكامنة من معادنها الثمينـــة إنفاقاً على طلبة علوم البلاغة والبيان من مأدبته الحفلى ، ومائدته التى هى أعلى وأحلى ، والله ولى التوفيق والإعانة ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

ثم يقول الراقم : وهذه الجهة أعنى إعجاز القرآن بمفرداته من هـذه الجهة الغامضة التى قررها الشيخ لم يتنبه له أحد مثله ، ولم يكشف عنها بتلك المثابة ، وإن كانوا تنبهوا له من جهات أخرى من جهـة التركيب والترتيب ومع هذا لم يجعلوها مناطاً للإعجاز ومحطاً للتحدى والمباراة ، وكان التنبيه عليه من الأعنى فى باب الإعجاز والأهم فى باب المجاراة ، وأحاول أن ألتقط من كلمات بعض الأعلام ما يوضح ذلك ، والشيخ ـ رحمـه الله ـ لم يتوجه إليها لأنها ما كان تدرك ببادى الفكرة للبلغاء المصاقع ، ولأن القوم تنبهوا عليها ، وإنما هم الشيخ كان إبداء الغوامض وكشف ما لم يكشفوا ، فلم يكن من دأبـه سرد ما قالوه كأصحاب العلوم المتوسطين ، بل دأبـه دأب المحققين الذين بلغوا غاية التحقيق والتدقيق ، إلا إذا دعته إليه ضرورة ، والله المستعان .

وأقول : رب كلمة تكون قبيحةً نافرةً مستهجنةً فى غير القرآن وهى تكون حسنةً وملائمةً فى نظم القرآن بحيث لاينوب غيرها منابها ، وليس هذا إلا من إعجاز صنع الله الذى أتقن كل شئ ، فلم يغادر فيه موضع خلة ، وهى اللفظة : « ضيزى » فإنها فى موضعها لايسد غيرها مسدها ، ألاترى أن السورة كلها التى هى "سورة النجم" مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالى : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى » وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال : « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى » فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الـذى جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لايسد مسدها فى مكانها ، وفى هذه المعنى كلمة أحسن منها ولكنها فى هذا الموضع لاترد ملائمةً لأخواتها ولامناسبةً ، لأنها تكون خارجـةً عن حرف السورة ، فإذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة قلنا : قسمة جائرة أوظالمة ، ولا شك أن جائرة أوظالمة أحسن من ضيزى ، إلا أنا إذ نظمنا الكلام فقلنا : ألكم الذكر وله الأنثى ،

تلك إذاً قسمة ظالمة ، لم يكن النظم كالنظم الأول ، وصار الكلام كالشئ المعوز الذى يحتاج إلى تمام ، وهذا لايخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام ، نبه عليه ابن الأثير ذلك الأديب الكاتب فى كتابه "المثل السائر" (ص - ٦٢) ولخصته بعض تلخيص ، أقول : ومن لطائف هذه الكلمة أنه أومئ بها إلى تقبيح تلك القسمة ؛ فإن اللفظ عنوان للمعنى ، ومن دأب البلغاء أنهم يشيرون إلى تهويل المعنى بتهويل اللفظ ، وهذا موضوع واسع ينبغى أن يفرد بالبحث وليس هذا موضعه .

ويوضح ذلك ما ذكره فى (ص - ١١١) من كتابه : إن لفظة : "الأخدع" وردت فى بيتين من الشعر وهى فى أحدهما حسنة رائقة : وفى الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وكقول أبى تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

الا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ما وجد لها فى بيت ابن الصمة عبدالله من الروح والخفة والإيناس والبهجة اه .

وربما تكون الكلمة حسنةً رائعةً إذا أتيت بها مفردةً ، وثقيلةً متنافرةً إذا أتيت بها مجموعةً ، وربما ينعكس الأمر ؛ فالقرآن المجيد فى الأولى يأتى بها مفردةً ولا يأتى بها جمعاً أبداً ، وفى الثانية يأتى بها جمعاً ولا يأتى بها مفردةً أصلاً ، مثال الثانى ما قال ابن الأثير فى كتابه (ص - ١١١) : ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ،

ولا يستفتى فى ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لايعلم كنه سره ، فن ذلك لفظة : " اللب " الذى هو العقل لا لفظة : " اللب " التى تحت القشرة . فإنها لاتحسن فى الاستعمال إلا مجموعة ؛ وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وهى مجموعة ،ولم ترد مفردة كقوله تعالى : « وليتذكر أولو الألباب » و « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » اه . ومن أشباهها لفظة : " الأكواب " ولفظة : " الأرجاء " فإنهما لم تردا فى القرآن إلا بصيغة الجمع ، وترك المفرد فيها وهو الكوب ، والرجا بالقصر ، ومثال الأول كما قاله صادق الرافعى : لفظة : " الأرض " فإنها لم ترد إلا مفردة : فإذا ذكرت السماء مجموعة جيئ بها مفردة فى كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة ، وذهب بها حتى خرجت من الروعة ، بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة ، وهى فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » ولم يقل : سبع أرضين لهذه الجشأة التى تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالا .

وقال ابن النفيس فى كتاب " الطريق إلى الفصاحة " : قد تنقل الكلمة من صيغة لأخرى ، أو من وزن لآخر ، أومن مضى لاستقبال ، أو بالعكس؛ فتحسن بعد أن كانت قبيحة وبالعكس ، فن ذلك : " خود " بمعنى أسرع قبيحة ، فإذا جعلت اسما خوداً وهى المرأة الناعمة قل قبحها ، وكذلك : " ودع " يقبح بصيغة الماضى لأنه لايستعمل ودع إلا قليلا ، ويحسن فعل أمر وفعلا مضارع ، ولفظ اللب بمعنى العقل يقبح مفرداً ولا يقبح مجموعاً كقوله تعالى : « لأولى الألباب » قال : ولم يرد لفظة : اللب مفرداً إلا مجازاً كقوله ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » أو مضافاً إليها كقول جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وكذلك : " الأرجاء " تحسن مجموعة كقوله تعالى : « والملك على أرجائها » ولا تحسن مفردة إلا مضافة كقولنا : رجا البئر ، وكذلك " الأصواف " تحسن مجموعة نحو قوله تعالى : « ومن أصوافها » ولا تحسن مفردة كقول أبي تمام :

فكأنما لبس الزمان الصوفا

ومما يحسن مفرداً ويقبح مجموعاً المصادر كلها ، وكذلك : طيف وطيوف ، وبقعة وبقاع ، وإنما يحسن جمعها مطلقاً مثل : بقاع الأرض اهـ . حكاه الشيخ بهاء الدين السبكي في " عروس الأفراح " .

وإذ كان لمعنى واحد عدة ألفاظ ولم يخل منها واحد من الثقل والاستكراه أو الابتذال ، فالقرآن الحكيم في مثل هذه المواضع يعبر عن هذا المعنى بلفظ يؤدي أصل الحقيقة ويعدل عن اللفظ الموضوع لها ، قال ابن الأثير (ص - ٧١) من كتابه : وإن شئت أن تعلم من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع ، فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكره بلفظه ولا بلفظ القرمد ، ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر : فإن هذه الأسماء مبتذلة ، لكن ذكر في القرآن على وجه آخر وهو قوله : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » فعبر عن الآجر بالوقود على الطين .

قال الراقم : وذكر المفسرون في هذا التعبير نكتة أخرى أيضاً وهي : أنه لم يكن الناس يعرفون قبل فرعون الطوب والقرمد ، ففي هذا التعبير تعليم إلى هذه الصنعة وكشف عن حقيقة القرمد ، ولا تزاحم في النكات والأسرار .

وبالجملة : فللأسرار فصاحة كتاب الله الباهر وروعة إيجازه الخبير بدائع

وروائع ما يذهب بالألباب حسنها وبهاؤها ، وماءها ونماءها ، ورونقها وبهجتها ، وحسن سبكها وروعتها ، وهذا الموضوع بحر زاخر لا ساحل له، وإنما أوردت بقطرة من البحر ، وثمد من العين الثرثارة ، وحاشاه أن تحيط بجميع محاسنه عقول الأنام ، وقد تاهت له الأحلام ، وطاشت فى بواديها الظنون والأوهام . قال ابن الأثير : فلينعم الخائضون فى هذا الفن نظرهم ، وبعلموا أن فى الزوايا خبايا ، وإذا أنعموا الفكر فى أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا فى الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب اهـ . فهذه وجوه من وجــه الإعجاز بالمفردات ، صدعت بقدر يسير منها إيضاحاً لكلام الشيخ رحمه الله .

إعجازه من جهة التركيب

قال الشيخ : وأما إعجازه من جهة التركيب والترتيب، فهو أن القرآن الحكيم ينتقى تركيباً للمفردات من عدة تراكيب يسعها المقام ولا ينبو عنها الذوق بادى النكرة . إلا أن القرآن يختار تركيباً لا يمكن أبلغ منه وأوفى بالحقيقة وأجدى فى صدع الغرض . مثاله قوله تعالى وجل ذكره : « وجعلوا لله شركاء الجن » وكان حق العبارة بادي الرأى «وجعلوا الجن شركاء لله» ، ولكن غرض التنزيل أنهم جعلوا لله شركاء لا لغيره، يعنى جعلوا شركاء للإله الواحد الذى هو أغنى عن الشريك ، فى التقديم لله استعظام بقبح ما ارتكبوه ، فهذه سفاهــــة ، ثم إنهم لم يقتنعوا بهذا بل جعلوا شركاءه الجن الذى هو مخلوق ضئيل من مخلوقه ، فهذا استعظام آخر لما فعلوه ، واستقباح لتشريكهم الجن معه سبحانه وتعالى ، فهذه سفاهــة أخرى . فالغرض الذى سيق له الكلام لا يتأتى إلا بالتركيب الذى اختاره التنزيل العزيز . فالتنزيل يغير التركيب الذى يقتضيه ظاهر مساق العبارة لأسرار لطيفة ربما تجل عن الأفهام ، وتدق عن الأحلام .

قال الراقم : وهذا الذى اختاره الشيخ ـ رحمه الله ـ فى غرض التعبير القرآنى يحتمل أن يكون مبنياً على أن الجن بدل من شركاء كما اختاره الفراء وأبو إسحاق كما حكاه أبو سعود فى " تفسيره "، وكما اختاره الحوفى وأبو البقاء كما نقلـه أبو حيان فى " بحره " و" نهره " ، وهذا وإن كان يرد عليه أن القول بالبدلية لايصح لأنه لايستقيم ذكر البدل موضع المبدل منه فقط وهو شرط لكن يمكن البناء على مذهب من لم يشترط الكلية فى هذه الضابطة الإعرابية؛ وليس هذا موضع البحث عنه ، ويحتمل أن يكون الجن مفعولاً أولاً قدم المفعول الثانى عليه للنكتة المذكورة وهو المتبادر من كلام الشيخ رحمه الله ، وعلى كلا التقديرين لله متعلق بشركاء ، قدم للاهتمام الذى أسلفتـه فى بيان المعنى وراعيته فى تفسير اللفـظ ، وعلى الاحتمالين يدور كلام الزمخشرى فى "كشافه" فليراجع ، ولفظ الزمخشرى : فإن قلت : فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أوجنياً أو إنسياً ، ولذلك قدم اسم الله عـلى الشركاء اﻫ . وههنا أعاريب أخرى لاطائل فى سردها ، ولايصح بناء كلام الشيخ كله عليه . هذا ، وقال الشيخ ـ رحمه الله ـ فى خاتمة كتابه " نيل الفرقدين " : ومن المعلوم أن لاترادف فى المفردات عند المحققين وكذا فى المركبات فضرب زيد عمراً ، وضرب عمراً زيد ، وزيد ضرب عمراً ، كلها تراكيب متغايرة فى المعانى الثوانى ، وكـذا زيد قائم ، وقائم زيد ، وزيد القائم ، والقائم زيد اﻫ .

ثم أقول : وهذه الجهة من الترتيب والتركيب من جهة المعنى تدور عليها البلاغة المعنوية وربما تحتوى على دقائق قلما تتنبه لـه إلا ذو حظ عظيم من علوم البلاغـة أمثال الزمخشرى والجرجانى إن كان لها أمثال ، فكان هذه الجهة أعنى وأهم ، فاعتنى به الشيخ ـ رحمه الله ـ وللترتيب جهات أخرى من التلاؤم ، والروعة ، والبهاء ، والسلاسة ، ودفع الهجنة من اللفظ ، والثقل على السمع ،

والاستكراه للنفس ، بحيث يصاغ فى أحسن ترتيب ، ويفرغ فى أبدع قالب ، نبـه عليه ابن الأثير وغيره من علماء الفن ؛ ولابأس بإيراد بعض الأمثلة أداء لحق المقام ، وإيضاحاً للمرام ، قـال فى " المثل السائر " (ص — ٥٧) :

واعـلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها ، لأن التركيب أعسر وأشق ، ألاترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب ، وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظلمين » إنك لم تجد ما وجدتـه لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وإنه لم يعرض له هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها ؛ فإن ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت بين أخواتها كانت لابسة عن الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية ؟

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها ؛ فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولاعرف أسرار الألفاظ فى تركيبها وانفرادها ، وسأضرب لك مثالاً يشهد بصحـة ما ذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة ، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين ، أما الآية فهى قولـه تعالى : « فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لايستحيى من الحق » وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة إلا أن لفظة تؤذى قد جاءت فيه وفى الآية من القرآن ؛ فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها فى تركيب الآية ، فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه ، وأعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته ، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة وإمعان نظر ، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلى ، وهذه اللفظة التى هى تؤذى إذا جاءت فى الكلام فينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذى النبى » ، وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ، ألا ترى أنه قال : تلذ له المروءة وهى تؤذى ، ثم قال : ومن يعشق يلذ له الغرام ، فجاء بكلام مستأنف وقد جاءت هذه اللفظة اه .

وقال فى (ص - ٧٤) : « أما إذا صارت مركبة فلتركيبها حكم آخر ، وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة ، ومثال ذلك كمن أخذ لآلى ليست من ذوات القيم الغالية ؛ فألفها وأحسن الوضع فى تأليفها ؛ فخيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التى كانت منثورة مبددة ، وفى عكس ذلك من أخذ لآلى من ذوات القيم الغالية ؛ فيفسد تأليفها ؛ فإنه يضع من حسنها ، وكذلك يجرى حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف ، وهذا موضع شريف ينبغى الالتفات إليه والعناية به اه . وقال الإمام الرازى فى أواخر تفسير سورة البقرة من تفسيره " مفاتيح الغيب " (٢ - ٥٦٤) : ومن تأمل فى لطائف هذه النظم وفى بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا به ذلك اه .

وقد نبه الأمير اليمني في الجزء الثالث من " الطراز " في الفن الثالث على مزية ألفاظ القرآن بحيث أصبح في أعلى ذروة الفصاحة ومقتعد صهوة البلاغة على أربعة وجوه : فقال في (٣ - ٢١٩) : المزايا الراجعة إلى ألفاظه تارةً ترجع إلى مفردات الحروف، وتارةً إلى تأليفها من تلك الأحرف، ومرةً إلى مفردات الألفاظ ، ومرةً إلى مركباتها ؛ فهذه أربعة أوجه لابدَّ من اعتبارها في كون اللفظ فصيحاً ، وكلها حاصلة في القرآن على أتم وجه وأكمله . ثم فصل الوجوه الأربعة ومثل لها من القرآن مثالاً حاوياً لهذه المزايا الأربعة قوله : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » إلى آخر الآية ، ثم أطنب الكلام فيها في إبراز بدائعها وروائعها وظواهر محاسنها ومكامنها إفراداً وتركيباً ، وضعاً وترتيباً ، ولفظاً ومعنىً ؛ من جهة البيان والمعاني والبديع ، من (ص - ٢٢٦ إلى ٢٥٠) بحيث يستولي الأريحية على اللبيب من كل باب ، ويستفز الطرب لطائفه أولي الألباب بتعبير يسري في الحسن ، وينفذ في العروق، ويهديك إلى إعجاز القرآن ذوقاً ووجداناً ، ومعرفةً وإيقاناً ، ونوراً وبرهاناً، وسكونةً واطمئناناً ، جزاه الله عنا وعن سائر المستفيدين خير ما يجزي به عباده المحسنين ، وخوف الإطالة والخروج عما أنا بصدده من الإيجاز والاقتصار بالإيماضات بكبح شكيمة المزبر عن ذكرها .

ثم إني أظنك أيها البصير أنك اطلعت إجمالاً على ما أرشد إليه شيخنا - رحمه الله - من إعجاز نظم التنزيل من وجه النظم البديع ، والتأليف المرصع ، والترتيب المحكم في استنارة من تلك القبسات ، واستشفاءً بتلك النفثات ، ولعلك علمت جهتين في فصاحة المفردات من جهة تلائم الحروف بعضها ببعض ، وخفتها على السمع وسلاستها في النطق ومن جهة أداء الحقيقة المطلوبة بمعانيها وأغراضها التي لا يطلع على حقائقها إلا العليم الخبير ، وفي فصاحة المركبات من جهة ضم بعضها ببعض ، وإيراد كل كلمة في محلها

كأن بعضها آخذ بحجز بعض ، ثم من جهة معانيها التى صيغ له الترتيب الأنيق ، وتوخ به الغرض الدقيق ، وفيما ذكرنا مقنع وكفاية للبصير غير بعيد ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

إعجازه من جهة المقاصد

وأما الإعجاز باعتبار المقاصد فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : وأريد بالمقاصد ما يلزم المخاطبين تعلمها والانصباغ بصبغها ، والمعاملة بها مع المخلوق بحسب ما يقتضيها ، كما يذكره علماء الأمة فى شرح أسماء الله الحسنى ، ولفظ الشيخ بالأردوية .

مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا ہے جیسا علمائے کرام نے اسماء حسنی کی شروح میں لکھا ہے ۔

وكانت كلمات الشيخ موجزة فلم ينشرح لها صدرى كما يليق ؛ فسألت عنها شيخنا المحقق العثمانى ـ رحمه الله ـ وعرضتها عليه ، فأفادنى وأرشدنى إلى مطالعة " قطب الإرشاد " للعارف الأفغانى فقير الله بن عبد الرحمن الشكارفورى الجلال آبادى العلوى الحنفى ؛ فدونك الآن ملخص ما استفدته منقحاً واضحاً (١) فأقول : إن هناك ـ أعنى فى أسماء الله الحسنى ـ ثلاثة أمور :

(١) مرتبة العلم .

(٢) مرتبة الاعتقاد .

(٣) مرتبة العمل .

---

(١) كانت هناك عدة أقوال للعلماء والعرفاء فى تفاصيل المراتب الثلاث ؛ فصدعت بالذى تحقق لدىّ وتنقح ، وعبرت عنها بلفظى بزيادات لكشف الحقيقة وأداء الغرض وتفهيم المقصود ، والله ولى التوفيق . منه

فأما تحقق هذه الأسماء ، فيعنون به أن يتحقق العبد معانى هـذه الأسماء على ما اتصف به الله سبحانه وتعالى ، ويحصل معرفتها بما يليق بكبريائه وعظمته جل مجده ؛ فلا يقيس به مخلوقاً من خلقه ، ولا صفةً له بصفات مخلوقه ، فيعلم أن له بصراً لا كأبصار المخلوق ، وسمعاً لا كأسماعهم وهكذا ، ويقدسه ويمجده عما لا يليق بجلال كبريائه ومجده، ليس كمثله شئٌ ، وهو السميع البصير ، إلى ما انتهى إليه مقدرة البشر .

وأما التعلق بهذه الأسماء فيريدون أنه لما كان الله سبحانه وتقدس متصفاً بصفات كبريائه الأسنى ، ومتسماً بأسمائه الحسنى ، فما ذا يكون حظ العبد منها ؟ وكيف يكون علاقة العبد مع خالقه ؟ فقالوا : أن يستغرق العبد فى جلال صفاته وجمال أسمائه بحيث يستشعر بها قلبه كل حين ، وينقاد لآثارها وأنوارها بما يستدعيه ، ويذعن لها بقلبه بما يقتضيه ، حتى يرتسم فيه الآثار بما انعكس عليه من الأنوار .

وأما التخلق بها ، فيحاولـون أن ينصبغ العبد بأمثال تلك الصفات الربانية ، ويستلم لها فعلاً وعملاً ، ويصبح مظهراً لكل صفة من صفاته تبارك وتعالى ؛ فيعامل المخلوق بحيث يلوح فيه آثار الاستخلاف والنيابة ، حيث جعله خليفةً فى الأرض ومظهراً لصفاته ، كما فى الحديث : « إن الله خلق آدم على صورته ؛ فجعله سميعاً بصيراً وهداه إلى الخير والشر ، والحق والباطل » فالمطلوب منه أن يعمل ما يتقاضى منه شئونه تعالى ، فيتخلق بالملكات الجليلة ، والصفات الحميدة ، والأفعال الحسنة ، والأعمال القيمة ، ويدين بها البرية كلها من غير غرض يعود إليه نفعه عاجلاً ، ومن غير منفعة ترجع إليه فى الدنيا ، بل لا يريد عامله إلا رضاه ولا يطلب إلا وجه مولاه ، ويحسب أنه أداء لما وجب على ذمته ، وقضاء لما يتقاضاه منصبه ؛ فهذا هو التخلق

بأسماء الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو الانصباغ بصفاته جل وعلا ، ولنمثل لك مثالاً يتضح منه هذه المراتب الثلاث .

فالرحمن اسم من أسماء الله الحسنى ، فمرتبة التحقق فيه هو : معرفته بأن لله رحمة عظومة هي له صفة أزلية أبدية باقية ببقائه ، وأنه موصوف بهذه الصفة حقيقةً وإن لم يدرك كنهها ولم يعرف حقيقتها ، وأن ما فى المخلوق من صفات الرحمة هي آثار من آثرها ونور من أنوارها ، وانبجاس من عينها، وانفجار من معينها ، وهو سبحانه أجل من أن يشاركه فيه مخلوقه، أويساميه فيـه عبيده ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ومرتبة التعلق فيه : أن يخضع له العبد بقواه وجوارحه ، وظاهره وباطنه ، فى قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، ويشكره شكراً يليق لرحمته التى لاتحد بحد ، ولا تحصى بعد، جوارح وأركاناً ، وقلباً ولساناً ، ويعلم أن له مناً وإحساناً إلينا ، فيجب له الطاعة علينا ، ومرتبة التخلق به : أن يرحم المرأ على عباده ، ويواسيه فى مصائبه ، ويعينه فى نوائبه ، وينفق عليه من يده ، ويحسب ذلك وظيفةً من وظائفه ، ومنصباً من جليل مناصبه لايريد به إلا رضاء خالقه ومالكه ، إلى غير ذلك من شئون رحمته تبارك وتعالى .

هـذا ؛ ولنقتنع بهذا الإجمال ، فليس هذا موضع استيفاء البيان وإنهاء القول فيه ؛ فأقول : فهذه المراتب الثلاث كل مرتبة منها لاحقة متفرعة على السابقة ؛ فالتخلق فرع التعلق ، والتعلق فرع التحقق ، والتحقق هو مرتبة الاعتقاد والإذعان ، والتعلق مرتبة الصفات النفسانية ، والتخلق مرتبة الصفات الفعلية ،نعم يختلف هذه المراتب قوةً وضعفاً باعتبار مراتب العرفان والإيقان ؛ فالكامل فى الأولى هوالكامل فى الثانية ، والكامل فى الثانيـة هوالكامل فى الثالثة ، وأيضاً هناك اختلاف فى جبلة العبيد وفطرتهم من الملكات الغريزية

والأخلاق الطبيعية ، فمنهم من هو أقرب إلى انصباغ صفات الجلال ، ومنهم من هو أدنى إلى صفات الجمال ، والكامل منهم من كل فيهما ، وليس هذا موضع التفصيل .

ثم إن مراد الشيخ فيما أرى ـ والله أعلم ـ أن يتعظ ويتمسك ويدين بها الناس ، وأن يعلم أن كمال العبد لا يحصل إلا بها ، ويوقن أن نجاته ونجاحه وفوزه وفلاحه في علمها والاعتصام بعروتها الوثقى التي لاانفصام لها ، ويعلم أن فيها السعادة الأبدية ، وفيها المرضاة الإلهية ؛ فتنقاد لها غرائزها الفطرية وتنصبغ في صبغتها ، ويكون كالميت في يد الغسال لإطاعة أحكامه وأوامره ، معتبراً بعبره ، ومتعظاً بترهيبه وترغيبه ، متذكراً بقصصه وأمثاله ، ومتدبراً في حقائقه ومصالحه ، وما يعود إليه نفعه في عاجله وآجله ، وخواتمه وفواتحه ، متبصراً بظواهره وبواطنه ، متيقظاً لتنبيهاته وإيقاظاته ، متطلعاً لإشاراته وإيماضاته .

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ولكن مقاصد القرآن ما فيه ذكر المبدأ والمعاد ، وصلاح معاش العباد ، وفلاح الدنيا ونجاح الآخرة ، ولفظ الشيخ رحمه الله :

قرآن حكیم کے مقاصد وه ہونے چاهئیں جن سے مبدا و معاش و معاد اور فلاح و نجاح دنیا و آخرت وابسته ہو ۔

يعني أن مقاصد القرآن الحكيم تنبيه العباد إلى أحوال المبدأ والمعاد من الاعتقاد بالإله الصانع القدير المختار ، خالق الأرض والسماوات وما بينهما ، وبأن له الأسماء الحسنى ، وبأنه خلق الخلق ولم يكن قبله شيء ، وبأنه خلق الإنسان فسواه وصوره فأحسن صوره ، وكرمه على سائر بريته ، وأودعه نوراً ما يستطيع به أن يتفرس الأمور ، ويتوسم الآيات الكونية ، ويتدبر في

نظامها البديع المحكم ، ومع هذا بعث الرسل وأنزل الكتب لهدايته ، وأمره بشريعة ودين تكفل لصلاح معاشه ومعاده ، وما فيه نجاته فى دنياه وآخرته ، وإن الدنيا متاع الغرور ؛ فلا يغرن بهاءها وزهاءها ، وماءها ونماءها ، وأرضها وسماءها ، وطراوتها وطلاوتها ، وعذوبتها وحلاوتها ، فإلى الله مرجعكم ومأواكم ، ولديه حسابكم ، وإليه إيابكم ؛ فتبيد هذه الدنيا وتفنى ، ألا إلى الله تصير الأمور ، فبين القرآن مراتبها وأحوالها ، وأوضاعها وأطوارها فقال : « واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

ثم إن جهة إعجاز القرآن من هذه المقاصد أزهى وأزهر ؛ فإنه كتاب عزيز وذكر حكيم تكفل لبيان هذه الأمور على أبدع وجوه وأبرعها ، وأفصحها وأنصعها ، وأرفقها بالناس وأنفعها ، لاتوازيه شريعة ، ولايدانيه كتاب ، وبحيث تقصر عنها عقول الحكماء وأولى الألباب ، احتوى صفوة الشرائع الإلهية ، ونخبة الأديان السماوية ؛ فأخذ لبابها ، وأكمل نصابها ، واختار دررها وغررها ، واصطفى نخبها وزبدها ، ثم عليها السعادة الأبدية والنجاة السرمدية ، وبها يحصل الرضاء والرضوان وبها الفوز بنعيم الجنان ، والتى آداباً اجتماعية وأحكاماً نفسية ما تلائم نظام الفطرة ونواميس العالم ما لايتصور فى عقول البشر أتقن منها وأعلى ، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ؛ فهل فى العالم كتاب يكون عليه مدار السعادة والنجاة ؟ وهل فى البرية نظام بديع صحيح يلائم فطرة البشر غير ما جاء به القرآن الحكيم ؟ وهل غيره فى الناس صحيفة تهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ؟ وهل فى الدنيا ذكر حكيم ونور مبين يبين للناس طرق نجاح الدنيا ورقى المراتب العالية

وسبيل الفوز فى الآخرة من جنات النعيم ؟ « وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

إعجازه من جهة الحقائق

وأما إعجاز القرآن باعتبار الحقائق فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : وأريد من الحقائق الأمور الغامضة التى قصرت عن إدراك العقول والأفهام ، ولايكتنهها الأفكار والأوهام ، وما برحت فيها العقول مختلفة والجوانب متجاذبة : فلم ينفصم فيها نزاعهم وجدالهم ، ولم يصب بالغرض رماءهم ونضالهم كمسألة خلق أفعال العباد تحيرت فيها العقلاء ، وتاهت فى باديـة إدراكها الحكماء ، فلم يكشف بحثهم وفحصهم فيها حقيقـة الأمر فى أن ربط العبد بفعله ما ذا وكيف ؟ ثم رباط هذا الفعل الحادث بالقدرة الأزلية القديمـة كيف يكون ؟ فالقرآن يختار فى أمثال هذه المشكلات المعضلـة تعبيراً لايتصور أوفى منه فى كشف حقائقها ، والصدع بمغزاها فى مقدرة البشر .

وقد فرغت ـ والحمد لله ـ من شرح ما قاله الشيخ ـ رحمه الله ـ فى وجوه إعجاز القرآن من الجهات الأربعة : جهة المفردات ، والمركبات ، والمقاصد ، والحقائق ، وفصلت بعض ما أجمله بتفصيل يستحقه ، وأنا أدرى أنه لايوفى حقه إلا بأن يفرد بالتأليف فى مجلد كبير حتى يكشف عن قناع الإعجاز فى كل وجه ، ويقايس النظير بالنظير ، ثم يردف بسرد أمثلـة كثيرة حتى يتبين الأمر أبين من فلق الصديع وصديع الفجر ، بيد أنى اقتصرت على ما سنح لى من الأمثلة وقد قيل : ما لايدرك كله لا يترك كله ، ولا أرى حرجاً فى إيراد عبارته بلفظه ما كتبه فى بعض التحريرات ، وكأنه متن متين بلفظ رصين ، وإن كنت نقلت بعضاً منها فى تضاعيف شرحى لغرضـه ليعلم ما للشيخ من الطول والباع الواسع فى بلاغة الإيجاز والاختصار الجامع ، وإنه كيف يطوى المادة الغزيرة فى كلمة

موجزة وعبارة قصيرة، وليستبين لصاحب البصيرة النافذة بأن جملة واحدة من كلامه ربما يفتقر إلى تأليف رسالة ، وليتبين الفرق بين من وصلوا من الأئمة إلى ذروة التحقيق ومن دونهم من علماء الأمة ، وكأن الشيخ ـ رحمه الله ـ وضع أصولاً أربعةً لمفسر يأتي بعده ، ولا ريب أن هذه الأمور الأربعة من أعنى ما يجب على مفسر القرآن أن يجاهد فيها ويعاني لها في التفسير ؛ فأقول : ولفظ الشيخ رحمه الله :

قرآن مجید و حکیم کا اعجاز مفردات اور ترکیب و ترتیب کلمات اور مقاصد و حقائق کی جملہ وجوہ سے ہے ، مفردات میں قرآن مجید وہ کلمہ اختیار فرماتا ہے جس سے اوفی بالحقیقہ واوفی بالمقام ثقلین نہیں لاسکتے ، مثلاً جاہلیت کے اعتقاد میں موت پر توفی کا اطلاق درست نہ تھا کیونکہ ان کے اعتقاد میں نہ بقاء جسد تھی نہ بقاء روح ، توفی وصول کرنے کو کہتے ، ہیں ان کے عقیدہ میں موت توفی نہیں ہوسکتی ۔ قرآن مجید نے موت پر توفی کا اطلاق کیا اور بتلایا کہ موت سے وصولیابی ہوتی ہے نہ فناء محض ، اس حقیقت کو کلمہ سے کشف کر دیا ، اور کہیں اس لفظ کا اطلاق اپنے اصلی معنی سے جسد مع الروح کے وصول کرنے پر کیا ۔

ترکیب و ترتیب جیسے (وجعلوا لله شركاء الجن) ظاہر قیاس یہ تھا کہ عبارت یوں ہوتی وجعلوا الجن شركاء لله لیکن مراد یہ ہے کہ انہوں نے خدا کے شریک ٹھہرائے کوئی معمولی جرم نہیں کیا ، اور وہ شریک بھی کون (جن) بس یہ مراد اسی ترتیب اور نشست الفاظ سے حاصل ہو سکتی ہے ۔

مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا ہے جیسا علماء کرام نے اسماء حسنی کی شروح میں لکھا ہے ، مقاصد قرآن حکیم کے وہ ہونے چاہئیں جن سے مبدا و معاش و معاد اور فلاح ونجاح دنیا و آخرت وابستہ ہو ۔

حقائق سے میری مراد وہ امور غامضہ ہیں جن سے عقول وافکار قاصر رہے اور تجاذب جوانب اور نزاع عقلاً باقی رہا ۔ جیسے مسئلہ " خلق افعال عباد " کہ عبد کا ربط اپنے فعل سے کیا ہے اور کیسے ہے ؟ اور اس فعل کا ربط قدرت ازلیہ سے کیا ہے ؟ قرآن مجید ایسے مقام میں وہ تعبیر اختیار فرمائے گا کہ جس سے اوفی بالحقیقہ" طوق بشر سے خارج ہو ۔

انتهى ما قاله الشيخ ـ رحمه الله ـ . فانظر أيها المتبصر المتفقد وأجل قداح نظرك الغائر بين ما قاله القدماء والمتأخرون في وجوه إعجاز القرآن وبين ما أفاده إمام العصر شيخنا ـ رحمه الله ـ تر الفرق الواضح ؛ فإن كنت ذا نصفة في الأمر وذا بصيرة في المحاكمة نافذة وسايرت الأنجاد والأغوار يتجلى لك الليل من النهار ؛ فإن البون بعيد ، وما يوم حليمة بسر ، ثم أقول : أما أنا فقد أجلت نظري وحدقت بصري فيما قاله علماء الأمة ـ رحمهم الله تعالى وأفاض علينا من بركاتهم وعلومهم ـ في رسائلهم وكتبهم المفردة في هذا الموضوع كـ " إعجاز القرآن " للإمام شيخ السنة أبي بكر الباقلاني ورسالة " إعجاز القرآن " لأبي الحسن الرماني ، و" إعجاز القرآن " للفاضل الرافعي البصري ، وما ذكره العلماء في اضعاف كتبهم في غير هذا الموضوع كالإمام القاضي عياض المالكي في " الشفاء " ، والأمير اليمني في " الطراز " ، وما يذكره الشيخ عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " وغيرهم ، وما انتقاه الشيخ الجلال السيوطي في كتابه " الإتقان " من أقوال أكابر الأمة من القدماء ومن بعدهم ؛ فلم أقف على أجمع وأبدع مما أفاده الشيخ ـ رحمه الله ـ فقد جلى في هذه الحلبة وتجلى ، وأفاد فأجاد ؛ فلله دره ، وأعلى قدره ، ما أبهى دروه ، وما أزهى غرره ، ثم الذي ذكره هو أنواع الإعجاز يندمج فيها كثير من الجزئيات الإعجازية التي ذكروها وسردوها ؛ نعم جميع جزئيات إعجازه لاتنحصر ، ولا يكاد يطلع على جميعها إلا العليم الخبير الذي أنزله بعلمه ؛ فهو علام الغيوب ، وقد قال القائل :

وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

نعم رأيت في " الإتقان " و" توجيه النظر " للجزائري عبارة للإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ وما رأيت أحصر وأجمع في كلمات القوم منها ، وهي أقرب ما قالوه إلى ما أفاده الشيخ ـ رحمه الله ـ وإن كان في كلامه ـ رحمه الله ـ

ما لم يتنبه له أحد فهو جذيله المحكك وعذيقه المرجب ، ولا يخلو نقلها عن فائدة عظيمة تتمة لمقالتى ؛ فدونك الآن عبارته الجامعة ، قال ـ رحمه الله ـ فيما حكى عنه السيوطى فى " إتقانه " :

ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ، والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى درجات البيان متفاوتة ، فمنها : البليغ الرصين الجزل ، ومنها : الفصيح القريب السهل ، ومنها : الجائز المطلق الرسل ، وهذه الأقسام للكلام الفاضل المحمود ؛ فالأول أعلاها ، والثانى أوسطها ، والثالث أدناها وأقربها ؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع شعبة ؛ فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الوعورة ؛ فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ليكون آية بينة لنبيه ﷺ .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التى هى ظروف المعانى ،ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ؛ فيتواصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من

ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذى لب يشهد له بالتقدم فى أبوابه ، والترق فى أعلى درجاته وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعاً فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ؛ فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى من توحيد الله تعالى ، وتنزيهه فى صفاته ، ودعائه إلى طاعته ، وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شئ منها موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه ، ولا يتوهم فى صورة العقل أمر أليق به ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى ، وعاند منهم منبئاً عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الآتية من الزمان جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا عليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته أو مناقضته فى شكله ، إلى أن قال رحمه الله : وقد قلت فى إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس اهـ .

وجه آخر من الإعجاز

وكان يقول إمام العصر شيخنا ـ رحمه الله ـ : ويمكن أن نعد هناك وجهاً آخر من وجوه الإعجاز غير ما ذكرنا بيد أنى لا أبرم على إحصائه من وجوه الإعجاز ، وهو أن دأب النظم القرآنى فى سياق الأدلة أنه يستدل لأمر بكلام ظاهره الخطابة وباطنه البرهان ، يعنى يكون بعبارته ومنطوقه ومداوله المطابق

دالاً على إثبات الأمر بوجه خطابي إقناعي ، وبإشارته ومفهومه ومدلوله الالتزامي يدل على الحجة البرهانية القطعية كما ذكروه في دليل التمانع من التنزيل العزيز في قوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» ، وبهذا أجابوا من كفر التفتازاني بقوله في " شرح العقائد " بعد تقرير الآية على الوجه المستفاد من منطوقها بأن الحجة إقناعية والملازمة عادية ، فإن معاصر العلامة الشيخ عبد اللطيف الكرماني قد شنع عليه بقوله هذا تشنيعاً بليغاً حتى أكفره ، واستند في التكفير إلى أن الشيخ أبا المعين النسفي قد أكفر رئيس المعتزلة أبا هاشم الجبائي في كتابه " تبصرة الأدلة " بقدحه في الآية في دلالتها على تعدد الآلهة وإثبات التوحيد حتى ألف من أصحاب العلامة الشيخ علاء الدين محمد بن محمد بن محمد الحنفي البخاري رسالةً مفردةً في الذب عن شيخه ، وبين سرّ ذلك وأجاب عنه جواباً يطمئن به القلب ، وقد ساق ملخص ذلك الجواب الشيخ الكمال بن أبي شريف في كتابه " المسامرة شرح المسايرة " للمحقق الحنفي ابن الهمام صاحب " الفتح " و " التحرير " والشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي في شرحه عليها .

أقول : وملخص ما لخصناه مع تصرف وزيادة مفيدة : أن الأدلة القرآنية بمنزلة الأدوية ؛ فالطبيب الحاذق يستعملها على وفق الطبائع والغرائز من القوة والضعف ،والبرودة والحرارة،ومن لم يراعِ ذلك لكان الفساد أكثر من الإصلاح ، والضرر أكبر من النفع ؛ فيطب الحاذق كل أحد بما يلائم مزاج المريض الشخصي ؛ فهكذا التنزيل العزيز والذكر الحكيم في أدلته على إثبات الصانع المختار والتوحيد وغيرهما يختار ما يلائم عقول المخاطبين عند نزول القرآن ؛ فالمخاطبون عند النزول جمهورهم لقصور أفهامهم عن البراهين المنطقية ،ولعدم استيناسهم بالحجج المفيدة للقطع كان حوارهم بالتي تقصر عنها عقولهم أشدُّ ضرراً عليهم كما تضرُّ رياح الورد بالجعل، وكما يضرُّ نور الشمس

بصر الخفاش ، نعم لاتكفى الإقناعيات الظنية لأصحاب الفطنة ، ومنهم من كانوا أصحاب الفطنة والذكاء ، وإن القرآن بلاغ للناس كافة العرب والعجم ، والأسود والأحمر ، والأبيض والأصفر ، وكان ينبغى التنبيه أو الإشارة إلى ما يفيد البرهان القاطع ومع هذا ربما يفيد الخطابية الإقناعية ما لايفيده البرهان من شفاء القلوب وشرح الصدور ؛ فراعى القرآن فى ظواهر أدلته ما يفيد جمهورهم ، ولا ينبو عنها أذواق الفضلاء وأصحاب الفطنة ، وأشار فى بواطنها إلى ما يلزم الحجة على خواصهم وعقلائهم بالبراهين القاطعـــة اهـ . هذا ملخص ما ذكره شارحا "المسائرة" نقلا عن الشيخ علاء الدين البخارى بمحو وإثبات ، وكلامه طويل من شاء فليراجع فإنه حسن مفيد .

وقد أشار إلى ذلك ابن رشد الفقيه الفيلسوف ، وعده وجهاً من إعجاز القرآن فى كتابه "فصل المقال" ، والإمام الرازى فى غير آية من "تفسيره" ، وأما أن الشيخ - رحمه الله - لم يصرّ على عده من وجوه الإعجاز فلعل وجهه فيما أرى - والله أعلم - أن هذا مما يمكن أن يلحق بالبلاغة القرآنية ، ويتبع بأساليبه البيانية ، وأن الشيخ ذكر أنواعاً من الإعجاز لا أفراداً منه كما أسلفته ، فليس هو نوعاً مفرداً مستقلا ، أو لما نبه عليـــه بعض الأعلام أن الأصوب الأتقن والأحكم والأسلم فى إثبات المقاصد وتقرير الأغراض هو طريقة القرآن الكريم ، وهذه الطريقة التى هى تشفى القلوب وتجلو العيون ، وما يذكره الفلاسفة بالبناء على قواعد اخترعوها فأكثرها لا ينتهى إلى قواطع يقينية ، ومع هذا فلا يسمن ولايغنى من جوع .

قال الحافظ ابن تيمية - رحمه الله - فى كتاب "العقل والنقل" (١ - ٩١) المطبوع بهامش "المنهاج" : كل من أمعن فى معرفـــة هـــذه الكلاميات والفلسفيات التى تعارض بها النصوص من غير معرفة تامة بالنصوص ولوازمها ،

وكمال المعرفة بما فيها ، وبالأقوال التي تنافيها ؛ فإنه لايصل إلى يقين يطمئن إليه ، وإنما تفيد الشك والحيرة ، بل هؤلاء الفضلاء الحذاق ـ أراد بهم أبا حامد الغزالي ، والشيخ ابن العربي ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، وصاحب "خلع النعلين" ، والتلمساني وغيرهم ـ الذين يدعون أن النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات ، إلى آخر ما قال وأطال رحمه الله ، وقال قبله : وأنشد أبو عبد الله الرازي ـ يعني الإمام فخر الدين بن خطيب الري ـ في غير موضع من كتبه مثل كتاب " أقسام اللذات " :

نهايـة أقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قال وقالوا

وقال : لقد تأملت الطرق الكلاميـة والمناهج الفلسفية ؛ فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقـة القرآن ، اقرأ في الإثبات : « الرحمن على العرش استوى » « إليـه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، واقرأ في النفي « ليس كمثله شيء » « ولا يحيطون به علماً » « هل تعلم له سمياً » ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، انتهى ما حكاه رحمه الله .

ذكر بعض المزايا في التفسيرات القرآنية من كلام إمام العصر

قال إمام العصر رحمه الله : كل ما ذكره التنزيل العزيز في ضمن حكم من الأحكام ، أو جعلـه عنواناً للبيان في واقعة خاصة لامحالة يكون معمولاً في مرتبة من المراتب وصورة من الصور ، ولايبقى نظرياً وعلمياً محضاً لا يكون له علاقة بالعمل ـ وذلك تشريع دقيق ـ مثاله قولـه تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » فكما أن مفاده ليس عاماً حتى يصح التوجه كل حين في الصلاة إلى

كل جهة ، فكذلك ليس مفاده علمياً محضاً أو خصوصاً بشأن نزوله الخاص لمن اشتبه عليه القبلة ، بل بقى معمولاً به فى النافلة حين الركوب على الدابة .

وقوله تعالى : « أقم الصلاة لذكرى » فالصلاة ليس هو الذكر فقط وإنما هى حقيقة تحتوى على أركان خاصة بها وآداب معينة من الشارع ، ومع هذا فكونها ذكراً فقط معمول به فى بعض الصور ؛ فلم يبق عقلياً غير معمول به بل عمل به فى صلاة الخوف ولاسيما إذا راعينا معه ما نقل عن الزهرى : إذا تعذرت صلاة الخوف يكتفى بالتكبير ، وما قاله الفقهاء : إن الحائض ينبغى أن تتوضأ فى وقت صلاتها وتجلس تذكر الله .

ويمكن أن يدخل فيه آية الوضوء من ضم الرأس والرجلين فى جانب ، واليدين والوجه فى جانب ؛ فيسقط جانب فى التيمم ؛ فظهرت فائدة ذكر الرجلين ؛ وهما تغسلان مع الرأس وهو ممسوح به ، وأيضاً يبقى مادة لمسحها فى بعض الأحوال من التخفف والوضوء على غير حدث للقيام إلى الصلاة ، وهذا أسلوب معجز ، وراجع (ص - ١٣٥ و ١٣٦) من "مشكلات القرآن" له .

وقال رحمه الله : كل آية وإن نسخت لابد أن يكون معمولاً بها فى مرتبة من المراتب ، مثاله قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » فإنه بقى معمولاً به للحبلى والمرضع مع كونه منسوخاً فى منطوقه العام ، وبعض شرحه فى (ص - ٤٩) من " مشكلات القرآن " . وقال رحمه الله : ربما يستفاد من التنزيل حكم يدل عليه نظمه ونسقه ، ثم قد يكون ورد فى شأن نزول الآية ما يخالفه ، فيتعارض ما يدل عليه منطوق النظم وما يدل عليه شأن النزول فيقع اضطراب وقلق فى الغرض الصحيح . قال رحمه الله : والوجه فى ذلك عندى أن للتنزيل العزيز فى أمثال هذه المواضع مرادين : مراد أولى ، ومراد ثانوى ؛ فالذى يقتضيه نظم التنزيل الجليل يجعل مراداً أولياً ، والذى

يقتضيه الحديث الوارد فى شأن نزوله مراداً ثانوياً ؛ فكلا المعنيين يُرادان من نظمه على هذا الترتيب .

قال الشيخ رحمه الله : وعلى ذلك ينحلُّ كثير من الإشكالات فى كثير من المواضع : منها : ما فى سورة القيامة قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك » فتعسر على الأذهان رباط نظم الكلام بما قبله وما بعده نظراً إلى ما ورد عن ابن عباس مرفوعاً فى "الصحيح" ما يتعلق بشأن نزوله حتى تأتى القول للرافضة بنقص التنزيل ، وحاشاه عن ذلك ، وادعى روافض زنجبار نقص نحو عشرة أجزاء من القرآن ، كما ذكره الإمام الرازى ، وحاشا كلام وعد الله بحفظه من النقص ، فالجواب عندى عن هذه المعضلة أن ما ذكره الحديث هو المراد الثانوى فى مرتبة ثانية ، وما يقتضيه نظم الكلام من المراد الأولى الذى يرتبط به النظم وينتظم به الكلام هو أن تتعلق هذه الآية وما بعدها بأحوال القيامة كأخواتها من سائر الآيات فى السورة التى موضوعها بيان أحوال القيامة وأهوالها ، فلما ذكر الله سبحانه شيئاً من أحوالها عقبها بقوله : « لا تحرك به لسانك » أى لا تحرك بسؤال القيامة لسانك فتسأل عنها متى تكون ؟ كما يستعجل بها المشركون ويسألونك عنها « لتعجل به » أى تستعجل بوروده كما يستعجل بها هؤلاء « إن علينا جمعه وقرآنه » أى علينا جمع أحوالها وبيانها لك لتفهمها وتعلمها « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » فإذا تلونا عليك ذلك فعليك تلاوته وقراءته « ثم إن علينا بيانه » أى ثم إذا جاء وعدها فعلينا بيانه .

فكان تسليته له ﷺ عما يخطر بالبال فى مثل هذا ويقلق له الطبع البشرى لبيان موعدها ، فأنزل هذا الخطور منزلة الواقع كما هو دأبه سبحانه وتعالى فى الحوار مع عباده الأنبياء ، ولهذا عقب ذلك بقوله : « كلا بل تحبون العاجلة » بياناً للفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية من كونها مولعة بكل عاجل

وغافلة عن آجل . ويمكن تقرير الكلام بأبسط من هذا بحيث يطمئن به القلب ، وفي هذه الإشارة كفاية للأريب العاقل ، وهـــذا من إعجاز نظم التنزيل بحيث يستوفي جملة من المطالب بعبارة وجيزة ، ويحيط بجميع الجهات ، ولا يليق اقتصار القرآن في مثل هـــذا بما يفيده شأن نزوله فقط بل لابد أن يراعى سياقه وسياقه وغرضه وفحواه .

ومن أمثلة هذه القاعدة عندي قوله تعالى : « فإن طلقها فلاتحل له من بعد» قال الشافعية : هذا مرتبط بصدر الكلام من قوله : « الطلاق مرتان» والغرض منه بيان الطلقة الثالثة ، وما وقع بينهما فهو اعتراض ، والخلع ليس طلاقاً بل فسخ . ويؤيد هذا ما عند "أبي داود" وغيره أن قوله: « تسريح بإحسان » طلاق ثالث ، فلو تعلق قولـــه : « فإن طلقها » بما يتصله يكون هذا طلاقاً رابعاً ، فيجب أن يكون تعلقـــه بصدر الكلام ، والجواب عندي أن قوله : « تسريح بإحسان » مراده ترك الرجعة ، أي ما يقابل الإمساك ، وهذا مراده الأولي ، ويكون الطلاق الثالث داخلاً تحته كفرد من أفراده ، فإن الطلاق ترك للإمساك فكان قوله تعالى : « أو تسريح » أعم من الطلاق الثالث ، وقولـه : « فإن طلقها » لايكون طلاقاً مستأنفاً حتى يكون رابعاً بل بيان لأحد نوعي التسريح ، فما أفاده الحديث هو مراده الثانوي وما أفاده النظم القرآني هو مراده الأولي ، وهذا هو المسلك الراجح عندي إذا تعارض الحديث والآية .

ومن ثم قال الحنفية : إنه يتعلق بما يتصله لا بصدر الآيـــة ، فإن فيه تفكيكاً لنظم التنزيل ، إلى آخر ما قرره علماء الأصول . ولم أر فيهم من صرح بتعدد المرادين في نظم التنزيل إلا بعض المحشين على "التلويح" (١) حيث قال : إن

(١) وأذكر أن الشيخ رحمه الله قال مرة : هو الرجع ، قاله في حاشيته على " التوضيح " فليراجع حيث ترددت ذاكرتي .

الخمر يطلق على ما ذهب إليه الحنفية وما ذهب إليه الجمهور ، وما قاله الحنفية هو المراد الأولى ، وما ذهب إليه الجمهور هو مراده الثانوى ، انتهى ما قاله الشيخ مع تقرير وتوضيح لكلامه على ما أدى إليه فكرى .

وأقول : وهذا الذى أفاده الشيخ ـ رحمه الله ـ ههنا نظر أصولى تحتاج إليه فى كثير من الأحكام والمسائل ، وقريب منه ما قرره أهل البلاغة ولاسيما إمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى من تقسيم معانى الكلام الفصيح إلى الأولية والثانوية ، ومن أن مدار طبقات الفصاحة هو مزيتها باعتبار معانيها الثوانى ، وبها تقع المزية فى كلام البلغاء ، وكان الشيخ رحمه الله أيضاً يقرره ويجعله مما لابعد عنه ؛ فليجعل هذا نظير ذلك نظراً إلى تعدد الاعتبارين والمرادين وإن كان محط التعدد فى الموضعين مختلفاً ، ويمكن أن يجعل مآل النظيرين واحداً ؛ فكما لابد من العلاقة والرابطة بين المعانى الأول والمعانى الثوانى ، كذلك لابد من النسبة والعلاقة بين المراد الأول والمراد الثانى وإلا فكيف يمكن إدخالها فى كلام واحد ، وليس الأمر كالأمر فى الكلمات المفردة حتى يقال بالاشتراك ولو فى الضدين ، وحتى يقال بعموم المشترك ، فإن حكم المفردات غير حكم المركبات وإن الكلام هو فى المركبات ؛ فاحفظه فإنه نفيس ولطيف إن شاء الله تعالى .

مناط نظم التنزيل على الحوار العرفى

ثم إن الشيخ رحمه الله كان يقول : والقرآن الحكيم وإن تضمن إرشادات لطيفه برهانية تفيد أولى الأذواق الفلسفية ، ولكن مع هذا لايجعل ذاك محط الفائدة ومناط الغرض فى نظمه الجزيل ، نعم من أمعن الفكرة وأعمل الروية ، وخاض فى أسراره المطوية ولطائفه المكنونة ، يهده إلى سواطع البرهان بحيث تزيده إيقاناً على إيقان ؛ فمناط سياق نظمه الجليل على مجارى العرف

والحوار العربي من الاقتناع بالمسلمات والقضايا المقبولة عند أهل العرف دون البراهين التي تستفاد من مطاويه ، وهذا التعبير أحسن وأوفق بالحقيقة مما سبق أن ظاهره الخطابة وباطنه البرهان وإن كان لفظ الظهر والبطن من تعبير الحديث ، فإن هذا التعبير في هذا الموضع يوهم أن الله جعلها مناطاً للكلام ومحطاً للأمر ؛ وبالجملة : فحامل الآيات القرآنية هي ما نطقت به من حوار العرف العربي ويجعل مدارٌ لتفسير القرآن ثم يستعان في كشف علومه بإشاراته المودعة فيه في ضمن لطائفه وأسراره التي هي بحار زاخرة لم يوجد لها ساحل ؛ فلا ريب أن هذا الأسلوب البديع في الاستدلال والاحتجاج بما يلائم الطباع كلها سواء الحكيم فيه وغيره ، مرمى بعيد، ومسافة شاسعة ، وعنت شاق لاتبلغ إليه القدر البشرية والوسائل الحكمية والمناهج الفنية .

مدار آية التوحيد

وكان رحمه الله يقول : ليس مدار آية التوحيد يعني قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » على وقوع الفساد في النظام المشاهد وخروجها عن هذا النظم المحكم على تعدد الآلهة كما تبادر إلى الأذهان العامة ، بل المدار فيها على أنه لو كان فيها غير الله الواحد القهار سبحانه وتعالى إله أو آلهة لفسدتا ، يعني فسادهما متعين على عدم الله الحق الواحد فيهما ، سواء كان ذلك الغير إله واحد أو آلهة متعددة ؛ فالآية على هذا الغرض مناطها ومحطُّ فائدتها ، وإلى هذا المعنى أشار في قصيدته ضرب الخاتم على حدوث العالم بقوله :

ولو كان إلا الله قد قام فيهما لقد فسدا بالجور يجرى لما هنا

قال الراقم : وهذا هو السرُّ فيما قاله النحاة : إن إلا ههنا ليست استثنائية بل للصفة بمعنى غير حيث حققوا أنه لايحمل إلا ههنا على الاستثناء ، كيف ولو حملت لصار المعنى لو كان فيهما آلهة واستثنى عنها الله لفسدتا ، ومفادها أنه

أو لم يستثن منهم الله تعالى بل كان هو معهم ما فسدتا ، فكيف تكون الآية دليلا على التوحيد ؟ إذ من الجائز على هذا التقدير أن يكون فيها آلهة غير مستثنى عنها الله ، نعم إذا كانت بمعنى غير فتدل على أن جميع من كان مغايراً لله الواحد تعالى سواء كان واحداً أو متعدداً ، وسواء كان هو معهم أو لم يكن لفسدت السماوات والأرض ، وبطل هذا النظام المشاهد المحكم البديع كما فى قوله تعالى : « وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » فهذا هو منطوق الآية وله سيقت ، نعم يستفاد بطلان التعدد من مفهومها ؛ فهكذا فليفهم وليحقق .

ثم إن برهان التمانع المشار إليه فى مطاوى الآية الكريمة له عدة طرق قررها وحققها عليها علماء الأمة ، منها : ظنية ، ومنها : قطعية ، والإمام فخر الدين الرازى فى "تفسيره الكبير" أوصلها إلى بضع وعشرين وجهاً بعضها برهانية وبعضها إقناعية ، من شاء فليراجع إليه فيجد هناك ما يشفى صداه ويطفى وحره . والله الموفق والهادى إلى سواء الطريق .

القدر المعجز من القرآن المجيد

اعلم أن العلماء قد اختلفوا فى القدر المعجز من القرآن ، وذكر طرفاً من الآراء الإمام الباقلانى فى كتابه " إعجاز القرآن " (ص - ١٩٨) (مطبوع السلفية) وقال شيخنا - رحمه الله - : المعجز عندى أقصر آية من الآيات ، نعم وهذه الجهة والإعجاز فى هذا القدر أغمض ، وربما تخفى على الكملة البارعين ، ولا يتجلى مرماها إلا على من كابد الخوض فى المعانى ، وغاص فى بحر البيان والمعانى ، وراعى سائر الجهات التى سلكناها فى مسلك الإعجاز ، قال الشيخ رحمه الله : وما نقل فى الفقه عن فقيه الأمة إمام الأئمة أبى حنيفة - رحمه الله - من أن آية قصيرة من آيات القرآن تكفى عن القراءة المفروضة فى الصلاة ، وما

نقل عنه أنه يجوز للجنب قراءة ما دون آية ولا يجوز قراءة آية كاملة إلا على طريق الدعاء أو الثناء ؛ فيمكن أن يكون مبنياً على أن القدر المعجز من القرآن عنده هو قدر آية ، ولو كان البناء على هذا فهو من غاية دقة نظر الإمام وسمو كعبه ، ولاريب فهو فقيه الأمة ، تغلغل فى الحقائق والأسرار ، ولم أر من الفقهاء من صرح على ذلك إلا أنهم اكتفوا فى الاحتجاج له بأن الأقل منها لايطلق عليه اسم القرآن . والله أعلم ، وقال رحمه الله : نعم لاأقدر على تعيين القدر المعجز من الآية الطويلة .

خاتمة لموضوع الإعجاز

اعلم أنى قد بثثت فى هذه الأوراق ما أفاده الشيخ ـ رحمه الله ـ ما يتعلق بالإعجاز ، وما وصل إليه فكرى من شرح كلامه البارع بما يلائم هذه المقدمة بقول وسط ؛ فلعلك علمت منه منزلتـه فى خوض المشكلات ، والغوص فى حقائق التنزيل ، وبعد مداركه الشاسعة فى إعجاز القرآن ، ومن أجل ذلك كان يقول : قد وضع الله فى طبيعتى معياراً للفصاحـة والبلاغة يتبين عندى البليغ والفصيح من غيرهما ، وتستبين عندى مزاياهما ومراتبها ذوقاً ووجداناً ؛ فلا أقلد فيهما أحداً ؛ وكم من أشعار قدحوا فى فصاحتها وهى عندى فصيحة ، وكم من كلمات طعنوا فى بلاغتها وهى عندى بليغة . أقول : ومن أمثلته أن عجز شعر أبى الطيب :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة　　　سبوح لها منها عليها شواهد

قال بعض علماء الفن : إنه مخل بالفصاحة بكثرة التكرار ؛ فقال الشيخ : ليس فيه شئ يقدح فى فصاحته بل هو عندى فصيح ، ثم لما كان ـ رحمه الله ـ بهذه الذروة الشامخة من الفصاحة وعلوم البلاغة كان لايرضى من "إعجاز القرآن" للباقلانى كل الرضاء ؛ وكان يقول : الإمام الباقلانى هو متكلم من أئمة المتكلمين

وليس هذا فنه وإنما هو فن الشيخ عبد القاهر الجرجانى والشيخ العلامة الزمخشرى ، وقد جعل الله لكل فن رجالاً ، فللبلاغة رجالها ، وللكلام رجاله .

أقول : وهذا كما قال ابن الأثير الجزرى فى "المثل السائر" (ص ـ ١٤٨) : وبلغنى عن أبى الفتح ابن جنى ـ رحمه الله ـ أنه شرح ذلك ـ أراد قول أبى الطيب ـ :

تبل خدى كلما ابتسمت   من مطر برقه ثناياها

فى كتابه الموسوم "الفسر" الذى ألفه فى شرح شعر أبى الطيب فقال : إنها كانت تبزق فى وجهه ، فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه ؛ فشبهه بالمطر ، وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال فما يقال فى غيره ، لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب اهـ . وقال فى (ص ـ ١١٣) : وأسرار الفصاحة لاتؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية ، أو نقل كلمة لغوية وما جرى هذا المجرى ، وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها اهـ .

استطراد : قال الراقم : وكلام الشيخ ـ رحمه الله ـ ذلك على كتاب الباقلانى كنت سمعته منه منى برهة من الدهر سنة ١٣٤٦هـ فحل فى قلبى لما كنت أعتقد إجمالاً فى حق الشيخ بلوغه إلى غاية قصوى وأمد بعيد ، ثم لما ارتقى بى الحال ووفقنى الله تعالى لمطالعة كتاب الباقلانى وعرفت منزلة كتابه السامى ترددت كلام الشيخ ـ أعلى الله قدره ـ فى حق كتابه ، ولم يبق منى ما كنت أقدر من قدر كلامه ، هذا فى حق كتابه هذا ، ثم أمعنت النظر فى كتاب الباقلانى ، واستجممت القريحة فى كلام الشيخ ، واستمريت أخلاف الفكر فيما قاله فى باب الإعجاز ، ثم أطلت الفكرة فى كلام الشيخ وكلام الباقلانى وما بينهما من البون ؛ فعلمت علم يقين أن ما قاله الشيخ فى حق كتابه هو حق باعتبار منزلته

فى معرفة إعجاز القرآن ، وحق له أن ينقد مثله على كلام الباقلانى ، ثم استقريت الأمور التى أدير عليها النقد ؛ فوجدتها بحيث شفى الله بها صدرى ، وأشير إليها فى غاية الإجمال .

فأقول : أما أولاً : فهو أن كتاب الباقلانى بين يديك إذا أجلت نظرك الغائر وبصرك النافذ فى أنجادها وأغوارها لم تقف له على أمر فى باب الإعجاز لم يسبق إليه ، ولم تجد باباً مغلقاً من الإعجاز يكون هو فاتحاً له والغير متطفلاً عليه ، بل الإمام الخطابى والواسطى والجاحظ وغيرهم قد سبقوا إلى ما قاله فى " كتاب الإعجاز " ، نعم فصل ما أجملوه ، وفسر ما أبهموه ، وأعطى كل مقام حقه من الشرح ، بيد أنه لايستبعد مثل هذا من مثل الباقلانى ، ولايورث العجب من شأنه ، ومن البعيد أن يقال : لم يطلع على كلام من قبله فى هذا الباب ، ثم مع هذا قد أسهب الكلام بحيث قد يسأم الناظر فى أمور لامناط عليها فى كشف وجوه الإعجاز ، وأما كلام الشيخ فبين يديك أمعن فيه نظرك مرة غير مرة ، وحدد فيه بصيرتك يبدا لك فيه ما لم يسبق إليه إن شاء الله تعالى بل هو السابق فى هذه الحلبة الفسيحة التى تكل دون جوبها مهارى الأفكار .

وأما ثانياً : فقد قال الشيخ : إعجاز جميع القرآن أجلى عندى من طلوع الشمس عند شروقها ، وقد مر وجهه ، وكان أقصر آية عنده معجزاً ، ولم يختلف عنده الإعجاز وضوحاً فى البعض وخفاء فى البعض الآخر ، نعم مراتب الإعجاز وطبقات البلاغة تتفاوت فى ما بينها ، غير أنه أمر آخر ، وأما الباقلانى ـ رحمه الله ـ فقال فى (ص ـ ١٦٥) : وإن كنا نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعض أدق وأغمض اهـ . وقال فى (ص ـ ١٦٣) : وإن كانت الدلالة فى البعض أبين وأظهر ، والآية أكشف وأبهر اهـ ، وقال فى (ص ـ ١٩٩) : ألا ترى أن الإعجاز فى بعض السور والآيات أظهر وفى بعضها أغمض ، وقد

لايحتاج فى النظر فى حال بعضها إلى تأمل كثير ولابحث شديد حتى يتبين له الإعجاز ، ويفتقر فى بعضها إلى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل إلى المطلب ، ولايمتنع أن يذهب عليه الوجه فى بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماع أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبةً عنه اهـ .

هذا ما تيسر لى البحث عنه فى هذه المقدمه من وجوه الإعجاز وما هو الأعنى فى هذا الباب وقد أتيت بها بحول الله وحسن توفيقه بلباب ما فى هذا الباب بحيث يغنى عن كتاب مفرد عند أولى الألباب ، والله ولى التوفيق والإعانة ، وصلى الله تعالى على أفصح العرب العرباء وعلى آله وصحبه وبارك وسلم تسليماً كثيراً كثيراً .

ويلائم أن نأتى فى ختام بحث الإعجاز بما أفاده الجلال السيوطى فى "إتقانه" فى النوع الثالث والستين فى الآيات المتشابهات أى الكلمات التى تؤدى معانى متفقة وتختلف ألفاظها ، فقال رحمه الله : أفرده بالتصنيف خلق أولهم فيما أحسب الكسائى ، ونظمه السخاوى ، وألف فى توجيهه الكرمانى كتابه "البرهان فى متشابه القرآن" وأحسن منه " درة التنزيل وغرة التأويل" لأبى عبد الله الرازى ، وأحسن من هذا " ملاك التأويل " لأبى جعفر بن الزبير ولم أقف عليه ، وللقاضي بدر الدين بن جماعة فى ذلك كتاب لطيف سماه : "كشف المعانى عن متشابه المثانى " ، وفى كتاب أسرار التنزيل المسمى : " قطف الأزهار فى كشف الأسرار " من ذلك الجم الغفير ، والقصد به إيراد القصة الواحدة فى صور شتى وفواصل مختلفة ، بل تأتى فى موضع واحد مقدماً وفى آخر مؤخراً كقوله فى البقرة : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة » وفى الأعراف : « وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً » وفى البقرة : « وما أهل به لغير الله » وسائر القرآن « وما أهل لغير الله به » أو فى موضع بزيادة وفى آخر

بدونها نحو : « سواء عليهم أأنذرتهم » وفى يس وفى البقرة : « ويكون الدين لله » وفى الأنفال : « كله لله » أو فى موضع معرفاً وفى آخر منكراً أو مفرداً وفى آخر جمعاً ، أو بحرف وفى آخر بحرف آخر ، أو مدغماً وفى آخر مفكوكاً ، وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات ، وهذه أمثلة منه بتوجيهها ، قوله تعالى فى "البقرة" : « هدى للمتقين » وفى لقمان : «هدى ورحمة" للمحسنين» لأنه لما ذكر هنا مجموع الإيمان ناسب المتقين ، ولما ذكر الرحمه ناسب المحسنين . قوله تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا » وفى الأعراف : « فكلا » بالفاء ، قيل : لأن السكنى فى البقرة الإقامة وفى الأعراف اتخاذ المسكن ، فلما نسب القول إليه تعالى : « وقلنا يا آدم » ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل ، ولذا قال فيه : « رغداً » وقال : « حيث شئتما » لأنه أعم ، وفى الأعراف : « ويا آدم » فأتى بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى المأمور باتخاذها ، لأن الأكل بعد الاتخاذ ومن حيث لاتعطى عموم معنى « حيث شئتما » . قوله تعالى : « واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً » الآيـــة . وقال بعد ذلك : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » ففيه تقديم العدل وتأخيره ، والتعبير بقبول الشفاعـــة تارة" وبالنفع أخرى ، وذكر فى حكمته أن الضمير فى منها راجع فى الأولى إلى النفس الأولى وفى الثانية إلى النفس الثانية ، فبين فى الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لايقبل منها شفاعـة ولا يؤخذ منها عدل ، وقدمت الشفاعـة لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها ، وبين فى الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لايقبل منها عدل عن نفسها ولاتنفعها شفاعة شافع منها ، وقدم العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند رده ولذلك قال فى الأولى : « لاتقبل منها شفاعة » وفى الثانيـة : « ولاتنفعها شفاعـــة » لأن الشفاعـة إنما تقبل من الشافع وإنما تنفع المشفوع له .

قوله تعالى : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون » وفى إبراهيم : « ويذبحون » بالواو لأن الأولى من كلامه تعالى لهم ؛ فلم يعدد عليهم المحن تكرماً فى الخطاب، والثانية من كلام موسى فعددها، وفى الأعراف : « يقتلون » وهو من تنويع الألفاظ المسمى التفنن . قولـه تعالى : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية » الآية ، وفى آية الأعراف اختلاف ألفاظ ، ونكتته أن آية البقرة فى معرض ذكر المنعم عليهم حيث قال : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى » إلخ ؛ فناسب نسبـة القول إليه تعالى ، وناسب قوله : « رغداً » لأن المنعم به أتم ، وناسب تقديم : « وادخلوا الباب سجداً » وناسب خطاياكم لأنه جمع كثرة . وناسب الواو فى « وسنزيد » لدلالتها على الجمع بينهما ، وناسب الفاء فى : « فكلوا » لأن الأكل مترتب على الدخول .

وآية الأعراف افتتحت بما فيه توبيخهم وهو قولهم : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهـة » ثم اتخاذهم العجل ؛ فناسب ذلك «وإذ قيل لهم » وناسب ترك رغداً ، والسكنى تجامع الأكل فقال : « وكلوا » وناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا وترك الواو فى « سنزيد » ولما كان فى الأعراف تبعيض الهادين بقولـه : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق » ناسب تبعيض الظالمين بقوله : « الذين ظلموا منهم » ولم يتقدم فى البقرة مثله فترك ، وفى البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم ، والإرسال أشدّ وقعاً من الإنزال فناسب سياق ذكر النعمة فى البقرة ذلك ، وختم آية البقرة بيفسقون ولايلزم منه الظلم ، والظلم يلزم منه الفسق ؛ فناسب كل لفظة منها سياقه ، وكذا فى البقرة : « فانفجرت » وفى الأعراف : « انبجست » لأن الانفجار أبلغ فى كثرة الماء فناسب سياق ذكر النعم التعبير به . قوله تعالى: « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » وفى آل عمران : « معدودات » قال ابن جماعة : لأن قائلى ذلك فرقتان من اليهود : إحداهما قالت : إنما نعذب بالنار سبعـة أيام

عدد أيام الدنيا ، والأخرى قالت : إنما تعذب أربعين عدة أيام عبادة آبائهم العجل ، فآية البقرة تحتمل قصد الفرقـــة الثانية حيث عبر بجمع الكثرة وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلة ، وقال أبو عبد الله الرازي : إنه من باب التفنن .

قولـه تعالى : « إن هدى الله هو الهدى » وفي آل عمران : « إن الهدى هدى الله » لأن الهدى في البقرة المراد به تحويل القبلة ، وفي آل عمران المراد به الدين لتقدم قوله : « لمن تبع دينكم » ومعناه أن دين الله الإسلام . قوله تعالى : « رب اجعل هذا بلداً آمناً » وفي إبراهيم : « هذا البلد آمناً » لأن الأول دعا به قبل مصيره بلداً عند ترك هاجر وإسماعيل بـه وهو واد ، فدعا بأن تصيره بلداً ، والثاني دعا به بعد عوده وسكنى جرهم به ومصيره بلداً فدعا بأمنه .

قولـه تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » وفي آل عمران : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » لأن الأولى خطاب للمسلمين ، والثانية خطاب للنبي ﷺ ، وإلى ينتهي بها من كل جهـة ، وعلى لاينتهي بها إلا من جهة واحدة وهي العلو ، والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغـه إياهم منها ، وإنما أتى النبي ﷺ من جهة العلو خاصة ، فناسب قوله : علينا، ولهذا أكثر ما جاء في جهة النبي ﷺ بعلى وأكثر ما جاء في جهة الأمة بإلى .

قولـــه تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » وقال بعد ذلك : « فلا تعتدوها » لأن الأولى وردت بعد نواه فناسب النهي عن قربانها ، والثانيـة بعد أوامر فناسب النهي عن تعديها وتجاوزها بأن يوقف عندها . قولـــه تعالى : « نزل عليك الكتاب » وقال : « وأنزل التوراة والإنجيل » لأن الكتاب أنزل منجماً فناسب الإتيان بنزل الدال على التكرير بخلافهما فإنهما أنزلا دفعة . قوله تعالى : « ولاتقتلوا أولادكم من إملاق » وفي الإسراء : « خشية إملاق »

لأن الأولى خطاب للفقراء المقلين أى لاتقتلوهم من فقر بكم فحسن : « نحن نرزقكم » ما يزول بـه إملاقكم ، ثم قـال : « وإياهم » أى نرزقـكم جميعاً ، والثانية خطاب للأغنياء أى خشية فقر يحصل لكم بسببهم ولذا حسن : « نحن نرزقهم وإياكم » .

قوله تعالى : « فاستعذ بالله إنه سميع عليم » وفى فصلت : « إنه هو السميع العليم » قال ابن جماعة : لأن آية الأعراف نزلت أولاً وآية فصلت نزلت ثانياً فحسن التعريف أى هو السميع العليم الذى تقدم ذكره أولاً عنـد نزوغ الشيطان . قوله تعالى : «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» وقال فى المؤمنين : «بعضهم أولياء بعض » وفى الكفار : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » لأن المنافقين ليسوا متناصرين على دين معين وشريعة ظاهرة :فكان بعضهم يهوداً وبعضهم مشركين فقال : « من بعض » أى فى الشك والنفاق ، والمؤمنون متناصرون على دين الإسلام وكذلك الكفار المعلنون بالكفر كلهم أعوان بعضهم ومجتمعون على التناصر بخلاف المنافقين كما قـال تعالى : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » . فهذه أمثلـة يستضاء بها ، وقـد تقدم منها كثير فى نوع التقديم والتأخير ، وفى نوع الفواصل ، وفى أنواع أخر .

كلمات منثورة للشيخ رحمه الله

ليعلم أن للشيخ ـ رحمه الله ـ بدائع كلمات منثورة ، أصبحت بها أطراف من القرآن منظومـة ، فهى درر وجواهر ، أو حكم وبصائر ، تجرى مجرى الأصول فى أساليب القرآن المجيد ؛ فأسردهـا متسقة منتظمـة مع إيضاح ، وبالله التوفيق والعصمة .

طريق القرآن غير طريق التأليف

كان يقول رحمه الله : حوار القرآن الكريم لم يجئ على سرد الجزئيات على نسق كتب الفتاوى الفقهية ، أو توزيعها على المواد العددية ، كما في المؤلفات الجديدة من علماء العصر ، وإنما جاء على حوار العرب بعطف بعض على بعض، ومن ثم اختلفت الآراء في مواضيع الآي المتسقة في سياق واحد ؛ فربما يخفى أن موضوع الآية الثانية مثلاً هل هو موضوع الآية الأولى أو أعم منه أو أخص ، أو متعلق به يتعلق آخر ؟ ولا يخفى أنه أمر مهم مما يحرى أن يعتنى به اعتناء" .

التقديم والتأخير في أجزاء الواقعة الواحدة

وكان يقول : ليس موضوع التنزيل العزيز استيعاب التاريخ وسرد الوقائع كلها ؛ فالإيجاز في مقام ، والإطناب في مقام آخر ، والتقديم في أجزاء الواقعة في موضع وتأخيرها في موضع آخر لحكم وأسرار لطيفة ربما تقصر عنها العقول ، وللتنزيل العزيز في ذلك خصائص دقيقة تحتاج إلى استجمام القريحة ، وتلطيف الفكرة ، وإمعان للنظر بعيد ، ولتراجع الجزء الثاني من "الإتقان" من أنواع عديدة فترى فيها أسراراً من هذا الموضوع .

مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث

وكان يقول : إن مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث ، بيد أن الأسف على أن الأمة المرحومة لم تخدم القرآن مثل خدمة الحديث ،وكان الاعتناء به أهم منه بالحديث ، وقد مرّ قوله من أنه ليس في ذخيرة التفاسير المطبوعة تفسير للقرآن يوازى في الرتبة " فتح البارى لصحيح البخارى " حاوياً لمزاياه وصادعاً بغوامضه .

استيفاء التعبير القرآني يكون للغرض المطلوب

وكان يقول : نظم القرآن العزيز لايستوفى الألفاظ لمحض استيفاء العبارة بعد ما تبين الغرض وفهم المقام ؛ فربما يذر لفظاً يفتقر إليه على الظاهر حيث يكون غناء عنه بعد وضوح المقصود وانجلاء الأرب المطلوب .

دأب التنزيل في انتقاء الألفاظ

وقال رحمه الله : ومن رزقه الله ذوقاً فى القرآن وحظاً فى العربية يعلم أنه ليس يجرى على الحوار العامى المبتذل بل له طريقة متميزة فى انتقاء اللفظ واللحظ فيه إلى أصل الوضع واعتبار حقيقة ما وضع له ، ومن ثم يتعذر وضع لفظ بدل لفظ، وذلك لجهل المخلوق بحقائق الأشياء وبالذى يفى بالمقام ويوفى حقه .

التكرار فى التنزيل وحكمته

وقال رحمه الله : التكرار فى القرآن إنما يكون بقدر مشترك تارةً وبقدر مغاير أخرى ، وقلما يكون مكرراً محضاً ، وكنا فى أرب إلى النوع الأول منه كثيراً ، كيف ولو لم يكثر الأول لما سهل تفسير بعضه ببعض ، ولما تسنى وتأتى توفير مأخذ الأحكام والفوائد ، قال الشيخ : وأريد به أنه يؤخذ من لفظ حكم ومن لفظ آخر حكم آخر فى موضوع مشترك ؛ فيصير كمتن وشرح ، وإلا لكان كمتن صرف ، ثم إنه يؤخذ من التكرار الاعتناء والاهتمام بشأن ذلك الغرض المطلوب كما يقال : ذكرت الصلاة فى القرآن تسع مائة مرة فصاعداً .

نظام القرآن المجيد وتناسق آياته

قال رحمه الله : والذى يتراءى من عدم ارتباط بعضه ببعض فى بعض المواضع إنما يدل ذلك على علم ، وهو أن الأمور التى قصرت مداركنا على إبداء المناسبة فيها ، بينها ارتباطات وعلائق لايحيط بعلمها إلا علام الغيوب ، ونظير

ذلك أن الفقيه المجتهد يسرد أحكاماً في باب من الفقه مسلسلةً ؛ فربما يقصر أذهاننا عن فهم المناسبات بينها؛ فنحسبها جزئيات منتشرة وتكون عنده منضبطة تحت أصل وقاعدة ، وقال : والأعنى في باب النظم ارتباط بعض أجزاء الآية الواحدة ببعض ، وقد يشكل ذلك ؛ فالاعتناء بنظم الآية أهم منه بارتباط الآيات الكثيرة، مثاله قوله تعالى : « فاعتزلوا النساء في المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » فالأمر يشكل فيها بقراءة التشديد في قوله : « فإذا تطهرن » مع قراءة التخفيف في قوله : « حتى يطهرن » وظاهر أن الطهور هو انقطاع الدم فقط ، والتطهر أريد به الاغتسال بعد الانقطاع ، فكيف يصح ترتب قراءة التشديد على قراءة التخفيف ؛ فيكون النظم على منوال لاتعطه فلاناً حتى يدخل الدار فإذا دخل المسجد فأعطه .

وقد اختار الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ جواز القربان عند انقطاع الدم لأكثر المدة والجواب بعد أن أريد بالطهر الانقطاع فقط مع أنه محتمل للانقطاع والاغتسال كليهما ، وبعد أن أريد بالتطهر الاغتسال بعد الانقطاع مع أن فيه وجوهاً من انقطاع الدم وغسل موضع الدم والاغتسال أو الوضوء بأن ههنا مرتبتين : الأولى : مرتبة نفس الجواز والتوسع واليسر والرخصة ، والثانية : مرتبة العزيمة ، والأحوط الأولى ؛ فيكون الدلالة على المرتبة الأولى بقراءة التخفيف ، وعلى الثانية في ضمن قوله : « فإذا تطهرن » بياناً للأولى والمرضي عند الشارع في الأمر الصريح والإذن الواضح . نعم إن الانقطاع يتيقن عند أكثر المدة ؛ فراعه الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، وهذه اللطيفة لاتتأتى عند اتحاد القراءتين أو اتحاد مفهوميها عند اختلافها .

قال الراقم : وفي " روح المعاني" للسيد المفتي الآلوسي البغدادي كلام حاو في اختلاف القراءتين في الغاية فقط ؛ فراجعه فإنه حسن ، ومما قال ناقلاً

عن " الكشف " : إن القراءة بالتشديد لبيان الغاية الكاملة ، وبالتخفيف لبيان الناقصة ، وحتّى فى الأفعال نظير إلى فى أنه لايقتضى دخول ما بعدها فتكون الكاملة ألبتة ، وبيانه أن الغاية الكاملة ما يكون غاية بجميع أجزائها وهى الخارجة عن المغيا ، والناقصة ما تكون غاية باعتبار آخرها ، وحتّى الداخلة على الأسماء تقتضى دخول ما بعدها لولا الغاية ، والداخلة على الأفعال مثل إلى لاتقتضى كون ما بعدها جزءاً لما قبلها ؛ فانقطاع الدم غاية لحرمة باعتبار آخره ، فيكون وقت الانقطاع داخلا فيها ، والاغتسال غاية لها باعتبار أوله ؛ فلا تعارض بين القراءتين يعنى حتى يطهرن بالتخفيف والتشديد ، ولعل فائدة الغايتين بيان مراتب حرمة القربان فإنها أشد قبل الانقطاع مما بعده اهـ .

تنبيه : وهذا الذى ذكرته من الجواب هو طرف مما كان يلقيه الشيخ ـ رحمه الله ـ فى الدرس ، ثم راجعت إلى مـــا ذكره الشيخ فى " مشكلات القرآن " فوجدت كلامه هناك دقيقاً غامضاً يحتوى على أطراف وطرف من البحث ؛ فلم يغادر شيئاً ممـا يرد هناك من اختلاف القراءتين إلا وأجاب عنـــه ، وكذا أجاب عما يرد على الحنفيـة بما يشق القلب ويطفئ الوحر ؛ فليراجع إليـــه ، وأورد منه شيئاً لتكميل الفائدة ههنا فأقول : وهذا الذى أوضحته فى صدد الجواب ، فلعله ما أشار إليه بقوله : وللحنفية أن يحملوه على ما يعم الوجوب والاستحباب ، لعله يريد أن التطهر لما كان فعلا اختيارياً بمباشرة المرأ فيحتمل أن يتضمن المرتبتين : الوجوب والاستحباب ، فالغسل واجب للإتيان إذا كان الانقطاع لأقل المدة ، ومستحب إذا كان لأكثرها ، فهذا متقارب مما قررتـــه وإن كان بينهما نوع تغاير حيث ليس هناك تفصيل للأقل والأكثر إلا إذا شرط التيقن فى الانقطاع فهو فى الأكثر من غير الغسل فلم يجب ، وفى ما دونـــه بالغسل فوجب ، فالمفاد إذن واحد .

ثم قال الشيخ : « فإذا تطهرن » مرتبط بما قبل لا بقوله: « حتى يطهرن » يريد ـ رحمه الله ـ أنه ليس التفريع والترتيب على يطهرن حتى يشكل ارتباط الآية ونظمها ، بل على قوله : « فاعتزلوا النساء » . وقال رحمه الله : وليس المراد بالتطهر هو الغسل بالماء أو الوضوء أو الاغتسال كما ذهبوا إليـــه وإنما المراد العمل فى الطهارة، وهو أحد المعانى السبعة عشر للتفعل كما فى "البحر المحيط" (١-١٦٥) يريد ـ رحمه الله ـ ليس معنى من هذه المعانى معناه الحقيقى بل معناه الحقيقى هو العمل فى الطهارة ، وهو فعل اختيارى ، وهو عام يشمل جميع هذه المعانى شمول الكلى أفراده وجزئياته ، وهذا المعنى خاصة للتفعل من خواصـــه السبعة عشر التى ذكرها صاحب "البحر المحيط" فى قوله تعالى: « فتلقى آدم من ربه » إلخ ، قال : وإذا كان الأمر كذلك فقد أدخل فى الآية أمرين : فعلاً اختيارياً وهو العمل فى الطهارة، وغير اختيارى وهو الطهر بالانقطاع ، ولم يرد أيضاً ما أورده فى " بداية المجتهد " من عدم الارتباط، وصار الكلام نحو قوله: لاتعطه درهماً حتى يشرف بيتـه ؛ فإذا دخلـه فأعطـه ، أو نحو : لاتعطوه حتى يدخل ؛ فإذا ادخل فأعطوه اهـ ، هذا ؛ والله أعلم .

تحقيق النسخ فى القرآن

اختلف العلماء فى إحصاء ما نسخ من القرآن ؛ فأكثر منه القدماء لتوسعهم فى إطلاق النسخ على تخصيص العام وعكسه ، وتقييد المطلق وعكسه ، والاستثناء وتركـه ، ورفع الحكم بالكلية وانتهائه بانتهاء علته ، وما زال المتأخرون يسعون فى تقليله حتى الشيخ جلال الدين السيوطى جمعه نحو عشرين نسخاً ، وزاد عليه فى التقليل الشاه ولى الله الدهلوى حجة الهند وتابعته فى " الفوز الكبير " حتى حصره فى خمسة، والشيخ ـ رحمه الله ـ كان يقول : لايكاد يوجد شئ فى القرآن المتلو منسوخاً فى الحكم بحيث لايبقى حكمه فى وجـــه من الوجوه أو محمل من

العامل ، بل لاجرم يوجد حكمه مشروعاً فى مرتبة من المراتب ، وحال من الأحوال ، وزمان من الأزمان ، وهذا الذى أفاده الشيخ أمر مهم ، ذقه إن كنت من أهله ، ومن لم يذق لم يدر ، مثل سائر ، ومن ذاق وذاق فله فيه حكم وبصائر ، والله الموفق والهادى إلى الحق .

ليس فى القرآن حرف زائد

وكان يقول : ليس فى الكتاب العزيز حرف زائد لا دخل له فى تصوير المعنى فحاشاه عن ذلك، أقول : قال ابن الأثير فى "المثل السائر" (ص - ١٤٥) فى قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » إن لفظة ما ليست بزائدة ولكنها وردت تفخيماً لأمر النعمة التى لان بها رسول الله ﷺ وهى محض الفصاحة ، ولو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة، وقد ورد مثلها فى كلام العرب كقول زباء : أما إنه ليس ذلك من عوز المواس ، ولا من قلة الأواس ، ولكنه شيمة ما أناس ، فمعنى الكلام ولكنه شيمة أناس ، وإنما جاءت لفظة ما ههنا تفخيماً لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيماً لأمره ، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة ، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة ، وقول النحاة : إنها زائدة ، فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمونها فى موضع آخر "كافة" أى أنها تكف الحرف العامل عن عمله فكذا ههنا لم تمنع الباء عن عمل الخفض ، انتهى ملخصاً .

وقال الرافعى فى " إعجاز القرآن " (ص - ٣٠٥ الطبعة الثالثة) : ثم الكلمات التى يظن أنها زائدة فى القرآن كما يقول النحاة فى قوله تعالى : « فبما رحمة من الله » وقوله : « فلما أن جاء البشير » أن ما فى الأول وأن فى الثانية زائدتان أى فى الإعراب ، فيظن من لا بصر لـه أنها كذلك فى النظم ، ويقيس عليه مع أن فى هـذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب

بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد فى الأولى تصوير لين النبى ﷺ لقومه وإن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المدّ فى ما وصفنا لفظاً يؤكد معنى اللين ويفخمه ويفوق ذلك ، فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لايبتدأ هذا المعنى بأحسن منها فى بلاغة السياق .

ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظـة : رحمة ، مما يلتفت النفس إلى تدبر المعنى ؛ وينبه الفكر على قمة الرحمة فيه ، وذلك كلـه طبيعى فى بلاغة الآية كما ترى . والمراد بالثانية تصوير الفصل الذى بين قيام البشير بقميص يوسف عليه السلام وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف وأبيـه عليهما السلام ، وإن ذلك كأنه كان منتظر بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستفزازه غنة هذه النون فى الكلمة الفاصلة وهى أن ، وعلى هذا يجرى كل ما ظن أنه فى القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها إنما هو نقص يجلّ القرآن عنه اهـ .

العبرة لعموم اللفظ ليس على العموم

قال الشيخ رحمه الله : ومما اشتهر بين علماء الأصول من أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ليس على عمومه ، والأهم الذى يعنى فى هذا الباب التفقد والتوخى لغرض المتكلم ، وليس يلزم أن يكون منطوق كلامه مساوياً لغرضـه فى سائر الأحوال ، بل ربما يكون منطوق الكلام أعم من غرض المتكلم أو أخص ، وقد يكون مساوياً فالعبرة لعموم اللفظ يكون إذا لم يتعين غرض الشارع ولم يقم دليل على ما أراد منه ، كيف وقولـه تعالى : « فاقرءوا ما تيسر منه » هل يراد منه أن الاقتناع بآية واحدة من غير قراءة الفاتحة يكفى فى الخروج عن العهدة للمصلى ، وهل أتى الرجل بأمر القرآن إذا قرأ آيـة فى الصلاة من دون رعاية الأمور التى علمناها من الخارج ؟ وهل يكفى بأمر القرآن

فى العمل بأن يؤدى الصلاة من تعيين للفاتحة وغيرها من الواجبات ؟ و إذا كان هذا فكأن القرآن أمر بشئ لم يعهد لنا فى الشريعة و المعهود غير ، كلا ثم كلا ، ومن زعم ذلك فقد أخطأ الطريق وحاد عن المقصود ، بل كان غرض القرآن من هذا الأمر التخفيف فى القراءة إبقاءً على المرضى و السفر والمجاهدين رحمةً منه وفضلاً حيث شق عليهم الأمر بقيام الليل .

وأما مسألة ركنية الفاتحة ووجوبها فمسألة مفرزة تفرعت على الزيادة على القاطع بالظنى كأخبار الآحاد ؛ فعند الحنفية تجوز فى مرتبة الظنية أى يكون الزائد على القاطع أمراً ظنياً دون القطعى فى الحكم وإن كان العمل به واجباً ، وعند الشافعية تجوز فى مرتبة القطعية ؛ فالحنفية لم يهدروا العمل بالظنى كما يظن بل قاموا بالفرق بين مرتبتى القطع والظن أداءً لحق بما يلائم رتبة كل ، وأما التعبير العام عند الحنفيـــة بأنه لايجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد فتعبير سمح غير ملائم فعند الحنفيـة وإن قضى حق الأمر الذى جاء به القاطع بدون الفاتحة بيد أنه تأثم الرجل ووجبت عليه الإعادة إذا كان بالعمد ، ويلزم على التعبير العام أن يتحمل الكراهة فى مصداق الأمر الذى جاء به القرآن وهو غير لائق ، نعم يراد من الأمر ما هو غرض الآمر لكنـــه يفرق بين المرتبتين المنطوق القطعى والمعهود بالظنى ، وكان الإجمال فى القطعيات لأمر ما مثل التوسعة والتيسير على الأمة ، فليحفظ ، هذا ما فهمته من كلام الشيخ رحمه الله .

ورأيت للإمام الحافظ ابن دقيق العيد ـ رحمه الله تعالى ـ فى كتابـه " أحكام الأحكام " فائدةً تحتوى بمثل ما أفاده شيخنا رحمه الله ؛ قال رحمه الله : اشتهر أن العبرة لعموم اللفظ لابخصوص السبب ولكن يجب أن يتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العموم وعلى مراد المتكلم ، وبين مجرد ورود العام عـــلى السبب ولا تجرهما مجرىً واحداً فإن مجرد ورود العام

على السبب لايقتضى التخصيص به كنزول قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » بسبب سرقة رداء صفوان ، فإنه لايقتضى التخصيص به بالضرورة والإجماع ، أما السياق والقرائن فإنها الدالـة على مراد المتكلم من كلامه ، وهى المرشدة إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات . "أحكام الأحكام" (٢ - ٢٢٥)

فائدة فى الأحرف السبعة

قـال أبو عبيد : هذه الحروف التى ذكرنا فى هذين البابين من الزوائد لم يروها العلماء ولا احتملوها ، على أنها مثل الذى بين اللوحين من القرآن ، ولأنهم كانو يقرؤن بها فى الصلاة ، ويحكم بالكفر على الجاحد لهذين اللوحين خاصة وهو ما ثبت فى الإمام الذى نسخـه عثمان بإجماع المهاجرين والأنصار وإسقاط لما سواه ، ثم أطبقت عليه الأمة ؛ فلم يختلف فى شئ منه يعرفه جاهلهم كما يعرفه عالمهم ، وتوارثه القرون بعضها عن بعض ، ويتعلمـه الولدان فى المكتب ، وكانت هذه إحدى مناقب عثمان العظام ، وقد كان بعض أهل الزيغ طعن فيه ، وتبين للناس ضلالهم فى ذلك . . . . . .

والذى ألفه عثمان هوالذى بين ظهرى المسلمين اليوم ، وهو الذى يحكم على من أنكر منه شيئاً مثل ما يحكم على المرتد من الاستتابة ؛ فإن أبى فالقتل ؛ فأما ما جاء من هذه الحروف التى لم يوجد علمها بالإسناد والروايات يعرفها الخاصة من العلماء دون عوام الناس ، وإنما أراد أهل العلم بها أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين دلائل على معرفة معانيه وعلم وجوهـه ، وذلك كقراءة حفصة وعائشة : حافظوا عـلى الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر ، وكقراءة ابن مسعود : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ، ومثل قراءة أبى بن كعب : الذين يولون من نسائهم تربص أربعـة أشهر

فإن فاءوا فيهن ، وكقراءة ابن عباس : لاجناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج ، وكذلك قراءة جابر : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

فهذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت مفسرة للقرآن، وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك ؛ فكيف إذا روى عن كبار أصحاب محمد ﷺ ثم صار في نفس القراءة ؛ فهو الآن أكبر من التفسير وأقوى ، وأولى ما يستنبط به علم هذه الحروف معرفة صحة التأويل على أنها من العلم الذى لايعرف العامة فضله وإنما يعرف ذلك العلماء . . . وأشياء من هذا كثيرة لو تدبرت وجد فيها علم واسع لمن فهمه . . . وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، هذا شئ غير موجود ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب يتلون الحروف فيها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى والثالث بلغة أخرى سواهما كذلك إلى السبعة ، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض، وذلك يبين في أحاديث، والأحرف لا معنى لها إلا اللغات (من " فضائل القرآن " لأبي عبيد المخطوط)

فائدة

حديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » روى من حديث عمر وعثمان وعبد الله وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وحذيفة وهشام بن حكيم وابن عباس وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وأنس وغيرهم . وبلغ من رواه إلى أحد وعشرين صحابياً ؛ فكان متواتراً كما يقوله أبو عبيد القاسم بن سلام ، والظاهر المتبادر من سياق طرق الروايات أن الغرض التيسير رخصة في إزالة العسر الذين لم يتعودوا إلا لغتهم أو لهجتهم ، ثم نسخ ذلك بعد ما تعودوا

وتمرنوا ، وبقي منها حرف واحد وهو لغة قريش فقط وعليه كان أصل النزول ، ثم نزل البقية تخفيفاً وتيسيراً في أول الأمر ، ثم زال هذا في آخر الأمر .

ثم هذه السبعة من لغات سبعة كما اختاره ثعلب وأبو عبيد والأزهري وآخرون ، ثم هذه اللغات إما من قبيل اختلاف الكلمات مثل حتى ، وعتى ، والأثيم ، والفاجر ، وأقبل ، وتعال ، وهلم ، وعجل ، وما شاكل ذلك ، وإما باختلاف الحركات أو الإعراب ، أو من قبيل اختلاف اللهجات وكيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار ، وتفخيم وترقيق ، وتسهيل وتحقيق ، وإمالة وإشمام وغيرها ؛ فارتفع اختلاف الكلمات بعد التدرب والتعود ، وبقي اختلاف الحركات واللهجات ، واختلاف كيفية النطق مما كان أمكن إدراجها في حرف واحد أو ما تحمله رسم الخط ، والقراءات السبعة ليست مرادة بالأحرف السبعة كما نقل عليه الإجماع أبو شامة وغيره إنما هي متواترة عنه ﷺ وباقية إلى يوم القيامة .

وهذا الذي اخترته كأنه مركب من قول ابن قتيبة ومن قول أبي عبيد ، وابن قتيبة فصل مذهبه في كتابه في تأويل مشكل القرآن فراجعه من (ص - ٦) إلى ما بعدها .

فائدة

ترتيب الآيات الكريمة توقيفي اتفق عليه الأمة ، وأما ترتيب السور فقيل : توقيفي ، واختاره أبو جعفر النحاس وأبو بكر بن الأنباري ومال إليه البيهقي ويؤيده روايات وإجماع الصحابة على ترتيب مصحف عثمان وإن كان سكوتياً ، وقيل : اجتهادي ، وينقل عليه الإجماع ، أو هو مذهب جمهور العلماء منهم مالك والقاضي أبو بكر الباقلاني وغيرهما ، وقيل : بعضها توقيفي وبعضها اجتهادي

ويؤيده روايات وقرائن، والأولى أن يقال: إن ترتيب السور توقيفي بالفعل دون القول من فعله ﷺ ومن ترتيب المصاحف العثمانية ، ومن ههنا جاء بعض الاختلاف عن الصحابة كترتيب ابن مسعود لمصحفه حيث لم يكن قول صريح ونص واضح قولي في ترتيبها مثل ترتيب الآيات ، فجاء الاختلاف في طائفة منها ، هذا ما جنح إليه قلبي بعد التدبر ، والله أعلم .

وقد فرغت من إنجازها ليلة الجمعة المباركة الثامنة عشر من شهر رجب سنة ١٣٥٦هـ ست وخمسين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية ، وكان الشروع فيها في أواخر الجمادى الأولى من تلك السنة ، اللهم تقبلها مني واجعلها خالصةً لوجهك الكريم ، واجعلها مولائي وسيلةً لفتح أسرار الذكر الحكيم والكتاب المبين على عبدك المسكين ، وذريعةً إلى هداية علوم كتابك المخزون المكتون للعبد المحزون ، اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، اللهم إني أسألك رحمةً من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلمّ بها شعثي ، وترد بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني من كل سوء ، وصلى الله تعالى على سيد المرسلين وإمام المتقين محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين آمين يا رب العالمين ، رب السماوات والأرضين ، ورب الأولين والآخرين .

★ ★ ★ ★

الفهرس

الموضوع	الصفحة

☆ ☆ ☆

التصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٢٢	زينته	زينت له
٣٩	٢٠	إفهام	أفهام
٤٦	١٩	وتفسير ابن جرير	كتفسير ابن جرير
٧١	١١	بعد ما	بعض ما
٧٢	١٤	المزيجة	المزيجة
١٣٨	٧	قت	وقت

منشورات مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي
علامة محمد يوسف بنوري تاؤن كراتشي ٧٤٨٠٠

١-يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن - للعلامة المحدث الشيخ محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالى.

٢-الأستاذ المودودي وشيء من حياته وأفكاره- للشيخ المذكور.

٣-كشف النقاب عما يقوله الترمذي وفي الباب-للشيخ الدكتور محمد حبيب الله مختار حفظه الله تعالى.

٤-مسانيد الإمام أبي حنيفة-للشيخ محمد أمين الأوركزي حفظه الله تعالى.

٥-الحزب الأعظم والورد الأفخم للعلامة المحدث علي القاري رحمه الله تعالى.

٦-موقف الأمة الإسلامية من القاديانية-لنخبة من العلماء.

٧-الطريقة العصرية في جزئين-للدكتور عبدالرزاق إسكندر حفظه الله تعالى.

المنشورات باللغة الأردية

٨-سنت نبوية اورقرآن كريم-للشيخ الدكتور محمد حبيب الله مختار حفظه الله.

٩- إيمان اور إيمانيات ١٠- إسلامي عبادات

١١- إسلام كا سياسى نظام ١٢-تنوير العينين في تفسير المعوذتين

كلها للشيخ محمد إسحاق الصديقي حفظه الله تعالى.

١٣- عائلي قوانين شريعت كى روشنى ميں-للشيخ مفتى ولى حسن التونكى رحمه الله تعالى.

١٤- عظمت صحابة في اللغة الانكليزية ١٥- مالابد منه في اللغة الانكليزية

المترجم: الشيخ محمد يوسف طلال الأمريكي حفظه الله تعالى.

* * *